كتاب

التحفة البهية في الرحلة الشرقية

تأليف

فخر العلم والعلماء ومقتدى أفاضل العظماء الآخذ من كل فضيلة بالحظ الاوفر الاستاذ بدر الحاج احمد بن الحاج حمّ الاشهر القاضي بالمحكمة الشرعية الاباضية بمدينة معسكر حفظه الله في الدنيا والآخرة ورزقه المهمات على حسن الخاتمة والحمد لله رب العالمين

طبعت على نفقة المؤلف ورفيقيه في سفر هذه الرحلة حضرتي الفاضلين الحاج عيسى بن موسى التاجر بقصر البخاري والحاج بكير ابن داود التاجر بقالمه

سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ومن تجاراً على طبعها بدون اذن من صاحبها يحاكم بما تقتضيه قوانين المطبوعات

طبعت بالمطبعة الجمالية بحارة الروم — بمصر

كتاب

ط/0306

التحفة البهية في الرحلة الشرقية

تأليف

فخر العلم والعلماء ومقتدى أفاضل العظماء الآخذ من كل فضيلة بالحظ الاوفر الاستاذ بدر الحاج احمد بن الحاج حمّ الاشهر القاضي بالمحكمة الشرعية الاباضية بمدينة معسكر حفظه الله في الدنيا والآخرة ورزقه المنات على حسن الخاتمة والحمد لله رب العالمين

طبعت على نفقة المؤلف ورفيقيه في سفر هذه الرحلة حضرتي الفاضلين الحاج عيسى بن موسى التاجر بقصر البخاري والحاج بكير ابن داود التاجر بقالمه

سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ومن تجا أ على طبعها بدون اذن من صاحبها يحاكم بما تقتضيه قوانين المطبوعات

طبعت بالمطبعة الجمالية بحارة الروم — بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أوجب على خلقه بمحض عدله فرائض تشريفا لهم وتكميلا * القائل جل جلاله « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » * والصلاة والسلام على من أرسل نورا ورحمة للعالمين * سيدنا محمد المبعوث لاتمام الاخلاق من خيرة النبيين وأشرف المرسلين * وعلى آله وعترته وأزواجه أمهات المؤمنين * وأصحابه الذين عزروه ونصروه فى مواطن كثيرة والذين شيدوا أركانا للدين * أما بعد * فيقول العبد الفقير المضطر الى رحمة ربه الغنى القدير (يدر) الحاج أحمد بن الحاج حمّ المقر بالعجز والتقصير * هذه تقييدات شريفه * ودرر نفيسة ظريفه * كتبتها على رحلتنا الشرقية لما نادى بى الشوق والغرام * بالعزم على التوجه لاداء الفريضة وحج بيت الله الحرام * فكانت بعون الله فوائدها كالفرائد * منظومة فى عقد متين بقواطع الادلة والشواهد * والله أحمد وله الفضل فى المبدأ والختام * وعليه اعتمادى آناء الليالى وأطراف الايام *

تمهيد الرحلة

طبعت عادة السلف الصالح من أكابر العلماء وجبلت على حب السفر والجولان فى البر والبحر والسياحة فى الارض ليشاهدوا عجائب صنعه تعالى ومبلغ قدرته فى مخلوقاته وملكه الواسع الذى يحير دقيق الفكر ويقف عنده حده النظر فاذا عزم أحدهم على الشروع فى هذا المقصد الاسنى توكل على الله وسعى فى أسبابه الموصلة عادة من اتخاذ رفيق مساعد وراحلة وزاد ثم يجعل

وجهته فى سفره الوقوف على أحوال الامم التى يمر عليها فى طريقه والاطلاع على جودة محاسنها ورداءة أفعالها فيرى مقدار رقيها فى التقدم وأسبابه وهبوطها فى الانحطاط ودواعيه ويشاهد كل ما وقع تحت بصره من المبانى المشيدة والقصور الجسيمة والجسور العظيمة والانهار العميقة والجبال الشامخة والسهول الواسعة والبساتين المختلفة والفواكه المتنوعة وما عليه الناس من العوائد وغير ذلك من الفوائد كسياسة تلك الامم فى رعيتها ومبلغها فى الحرف والصناعات كالمعامل الحريرية والاخشاب والنسج ودرجتها فى العلوم الدينية والعصرية ونحو ذلك من طبيعة البلاد وأخلاقها وألوانها وأجناسها وحيواناتها الاهلية والوحشية ومقدار قوتها فى الحروب وما لديها من الاستعداد فى السلم والحرب وتاريخ كل بلد على الاجمال ومعرفة ديانتهم واعتقاداتهم وما هم عليه من اللهو والطرب وحبهم فى المتنزهات والمجتمعات ونحو ذلك مما لا يدخل تحت حصر

وهكذا يقع السؤال منه عن كل حالة يريد الوقوف على حقيقتها ومعرفة أطوارها من مبدإ خروجه الى نقطة عوده فيكون قد حصل عنده من الفوائد الجليلة الجديرة بان تكتب بماء الذهب على صفحات القلب السليم حيث أتى بجواهر الاخبار وفوائد الآثار ما يجعله فى أعين الناس كسواد العين وبصيره بين الشعوب والقبائل كنار على علم

غير انه لما كانت السياحة على هذا الوصف مجرد رؤية بالبصر وتامل بالقلب قد تذهب فائدتها كنفخة فى رماد أو صيحة فى واد فلا يحصل ما هو المقصود الاهم منها من بقائها بقاء الدهر ليعم نفعها كل جيل حيث انهم يتوارثونها واحدا عن واحد أراد السائح ان يبقى ذكر سياحته أمد الدهر فجمعها فى كتاب مع رعاية الحقيقة والاخذ بالاحتياط ان لا يكتب الا الواقع وسمى ذلك الكتاب رحلة ومنه قوله تعالى « رحلة الشتاء والصيف » فتبقى هذه الرحلة درسا لمعاصريه ولمن يأتى بعدهم ودليلا للمسافر حيث

يهتدى بها بمجرد ما يطلع عليها الى كافة الطرق التي يراد السير عليها من ذهاب في البر وركوب في البحر وتفيده فوائد جمة وهو في أشد حاجة اليها لانها تقوده الى مهمات الامور بسهولة من غير أجر وتبسط له المقالة فيما غاب عن حافظته وتيسر له المطالب وتقرب له المقاصد فكانها شخص أمامه يريه على وجه الحقيقة كل ما يلزم الوقوف عليه مدة سفره في جميع المسالك والمذاهب فيكون كمن خاض البحر وأحسن السباحة فاستخرج الجواهر النفيسة مثل اللؤلؤ والمرجان فلو لم يكن راكب البحر ماهرا في صناعته بواسطة الارشادات التي اكتسبها من ذوي الخبرة التامة لما استطاع ان يغوص البحر ويلج أعماقه ولما أمكنه ان يأتي لنا بتلك الجواهر الثمينة والمعادن النفيسة

وكذلك السائح في أرض لا يعرفها كداخل بحر بجامع ان كلا في تيه وفضاء واسع لا يدري أين يذهب كما أن الغواص محتاج بالضرورة الى مرشد يقرن عليه في مبدإ أمره حتى تصير له الغواصة ملكة يقتدر بواسطتها على اقتحام الاخطار لينال النفيس من الاوطار كذلك السائح في حاجة الى دليل يهتدى به في ظلمات البر والبحر ويتقي به كل المخاوف التي تحول دون مطلوبه والمنعة من الوصول الى مرامه فاذا يكون في مأمن حيث سلك طرق النجاة ليجني اليانع من الثمر والابكار من السفر

ولهذا النفع اعتنى المتقدمون بالسياحة وجمعوا كل ما وقع تحت نظرهم لتكون هدية لمن عاصرهم وذخيرة لمن بعدهم مع صعوبة السير وقتئذ لعدم وجود معدات السفر وفقد الامن على النفس وغير ذلك من العوائق الكثيرة وأما اليوم فقد سهلت طرق المواصلات بين سكان المعمورة على ظهر البسيطة برا وبحرا بواسطة الاكتشافات التي أحدثها بنو الانسان في القرن الاخير فبلغ الاستعداد للمسافرين ما يضمن لهم الراحة فوق ما يجدون في منازلهم مبلغا لا يحيط به الفكر ولا يدخل تحت وصف واصف من غير تفرقة في ذلك بين البر والبحر

فالمسافر بطريق البحر راكبا في الطبقة العليا أو المتوسطة يجد من لذيذ الاطعمة مع اختلاف ألوانها وكثرة أشكالها فوق ما يجده في الامكنة الرفيعة من المدن الشهيرة وكذلك يقدم له من أصناف الفواكه ما يدهشه حيث يراها في غير أوانها كالعنب في الشتاء والرطب في الربيع فضلا عن اللحم الطري وأنواع الحلويات وأجناس المشروبات فكانه في بستان توفرت فيه كل الاثمار واجتمعت فيه سائر الرياحين والازهار واللحم الخنيذ والشراب اللذيذ ولم يقف الاستعداد للمسافر عند هذا الحد بل أوجدوا له من آلات الطرب وأنواع المغاني والاوتار وضروب الدف والمزامير وليالي الفرح والسرور ما يدهش القلب ويأخذ بالابصار

فظهر لك أيها القارئ بهذا البيان المختصر كيف سهلت طرق المواصلات وكيف قربت المسافات في البحر وأما مبلغ ذلك في البر فلا يحتاج الى بيان

فلما كانت هذه الاستعدادات تكفل لعشاق السفر بالراحة في الطريق الى مرامهم اتخذها علماء الاوربيين منهجا لدرس فنون السفر كمعرفة أحوال الامم الراقية منها من غيرها ومقدار درجاتهم في العلوم العصرية والفنون الحديثة ونباهتهم في السياسة وتقدمهم في الصناعة ودرجاتهم في التجارة وثروتهم في الزراعة ومبلغهم في التربية واعتنائهم بتهذيب الاخلاق واهتمامهم بتربية المواشي وغير ذلك من مهمات الاحوال التي تختلف باختلاف الرغبة والنباهة المتفاوتين بتفاوت الدرجة في العلم والذكاء فيقتطف الواحد منهم مجلدات من الدروس النافعة التي يجعلها غذاء لبني جنسه ومرهما ناجعا في الخلل الواقع لبني وطنه وعلى هذا المنوال الجميل يقلد بعضهم بعضا ويتسابقون في الخيرات واكتساب الشهرة في الاكتشافات

ولم تقف سياحتهم عند هذا الحد في البلاد المتمدنة التي يأمنون على أنفسهم بل يرتكبون الاخطار في قطع المفاوز والدخول في الصحارى والتوغل في اعماق الصحراء الكبرى والمخاطرة بانفسهم والتعرض

للمهالك فضلا عما يقاسونه من العذاب الاليم وشدة الحرارة ونفاد الزاد واخفاء حالهم والتلبس باشكال أهل البلاد وصعوبة المسالك ووعرة الطرق وندرة الماء زيادة عن همجية تلك البقاع ووحشية تلك الاصقاع ونفرة تلك الحيوانات التى لا يتميز منها الناطق عن الصاهل والناهق ومن شابههما وفظاعتهم فى البربرية وخستهم فى العوائد وبعدهم عن الديانة الا أقل القليل ونحو ذلك من الاوصاف التى تمجها الطباع وتطرحها الاسماع

ومع ذلك نرى الاروباويين يرتكبون كل هذه الصعوبات فى حين ان تربيتهم وأخلاقهم تنافى طباع تلك الارض حبا فى التنقل ورغبة فى الاكتشاف وهى لذة يدركها ذوو العقول الرفيعة والاذواق السليمة

ولم يقف أيضا شغفهم المتزايد فى السياحة على هذا الحد بل طلبوا ما هو أشد صعوبة وأكبر فائدة وأعز منالا وهو اكتشاف القطبين

(حقيقة القطبين)

يعلم كل من له المام بعلوم الهيئة ومبادى الجغرافية مع امعان النظر فى الادلة التى أوردوها ان كلمة القوم اتفقت على ان الارض كروية الشكل بلا نزاع حتى قال الرازى اتفق العقلاء على كرويتها وهى مبططة من طرفيها أى غير تامة التكوير من الطرفين وانما الخلاف فى الحركة ذاتية أو عرضية فذهب علماء الفلك الى انها وصف للاجرام السماوية والارض ثابتة ولا تضاف اليها الحركة أصلا والجغرافيون بعكس ذلك قالوا ان الشمس ثابتة والسيارات وبقية الكواكب ومن جملتها الارض وهى كوكب عندهم فالكل يتحرك حول الشمس فجعلوا للارض حركتين واحدة من المشرق الى المغرب فمنها يتولد الليل والنهار والاخرى من المغرب الى المشرق فمنها تتكون السنة والفصول والشهور وعلى كلا التقديرين ان للفلك الاعظم يحيط به الارض دائرة عظيمة توهمية * تقسم كرة العالم الى نصفين متساويين أحدهما شرقى والآخر غربى وتتعدد بتعدد كل نقطة تفرض على سطح الفلك أو

الارض وتمر بسمت رأس كل بلد مفروض ولذلك اذا توسطت الشمس أى مرت عليها حصل الزوال فى تلك البلدة ولهذا سميت دائرة نصف النهار لان النهار ينتصف عندمرور الشمس عليها ولهذه الدائرة مركز وقطر فالمركز نقطة بداخلها بحيث تكون جميع الخطوط الخارجة منها الى سطح الدائرة متساوية والقطر خط يخرج من المركز وينتهى بنقطتين من المحيط وان انتهى من جهة واحدة فنصف قطر كما يعلم ذلك لمن له دراية بالاشكال الهندسية فمركز دائرة نصف النهار هو مركز العالم أو مركز الارض والمعنى واحد وقطرها هو محور العالم ويسمى خط نصف النهار وخط الزوال وهو خط يخرج من نقطة الشمال وينتهى بنقطة من الجنوب مارا بمركز العالم وطرفا هذا الخط يسميان قطبى العالم أو الارض فالقطبان الفلكيان أو الارضيان هما نهاية محور العالم أحدهما شمالى والآخر جنوبى وهنا خط آخر يقاطع محور العالم على زوايا قوائم يسمى خط المشرق والمغرب وخط الاستواء لاستواء الليل والنهار فيه فى جميع السنة وقد اعتبره علماء الفلك والجغرافية مبدأ للعروض شمالية أو جنوبية والعرض بعد نقطة مفروضة عن خط الاستواء ونهاية العرض تسعون درجة وغاية المعمور على ظهر البسيطة (٧٠) درجة فى جهة الشمال واما الجنوب فالعمران فيه قليل جدا

والمنطقة القريبة من القطبين تعرف فى اصطلاح الجغرافيين بالمنجمد الشمالى أو الجنوبى لكثرة الثلوج المتجمدة حتى ان مياه البحر مع اتساعها تتجمد كالاحجار لضعف حرارة الشمس هناك

فتلخص من هذا البيان المختصر ان النجمتين القطبيتين هما طرفا محور العالم بالنسبة للفلك المكوكب أو نقطتان من الارض مقابلتان لهما وهذان القطبان خاليان من العمران فيما يظهر ويجوز ان توجد بعض الحيوانات التى تعيش فى تلك الاصقاع المتجمدة كما يحكى ذلك وعلى كل حال فحقيقة القطبين مجهولة لنا غير معلومة الى الآن وهذه المسئلة هى التى أشغلت رجال العلم من

لاوروباو بين حيث راموا اكتشافها ورفع القناع عنها وبذلوا جهدهم ما استطاعوا فلم يحصلوا على نتيجة ولا أتوا بفائدة فمنهم من ذهب ذهاب القارظان ومنهم من رجع بخفي حنين

ولما كان هذا المطلب النفيس يحتاج في اكتشافه الى اعتناء زائد واهتمام بالغ أخذوا في تأليف جمعيات خيرية لهذا الغرض وهو اكتشاف القطبين وشرعت تلك الجمعيات التي تساعدها دول عظمى في أسباب الرحلة القطبية وبعثت ارساليات متتالية وجهزتها بوفرة ما تحتاج اليه البعثة في طريقها من المراكب البحرية والذخيرة الكافية باكمل استعداد وأتم تجهيز

غير أن تلك البعثات المتوالية وان تقدمت في سيرها لم تأت بالفائدة المطلوبة والنتيجة المقصودة بل ذهب أكثرها ضحية في تلك البقاع وطالما انكسرت تلك السفن وتفرقت ألواحها شذر مذر

وأحيانا يرجع البعض بنوع من التقدم في السير ومع ذلك لم ينقطع رجاؤهم بل ازدادت رغبتهم شدة في الرحلة القطبية للقاعدة الجارية مجرى المثل (ان أعز شيء مامنع)

وهذا البيان في مقدار أهمية الاوروباويين في التنقل والارتحال حبا في الاكتشافات الغريبة هو قليل من كثير ولهم في ذلك مزية عظمى يحمدون لاجلها ويستحقون الشكر عليها كما أن كل واحد منا يجد من نفسه احساساً يحب ان يشاركهم في مثل هذا التنقيب والبحث الغريب والاكتشاف العجيب لو توفرت لديه الاسباب والشروط مع انتفاء الموانع

ولما كانت السياحة على هذه الاوصاف الجليلة من أجمل ثوب يرتديه الانسان وألذ طعام وأحلى شراب تشتهيه النفس وتجعله في مقدمة الحياة امتزجت بقلبي امتزاج الماء بالراح والاجساد بالارواح وصادفت مني مكانا خاليا فتمكنت منه تمكن العشق بالمعشوق والحب بالمحبوب ولم تزل تنازعني وتعرض على محاسن نفاستها وفرائد بهجتها حتى قوى ذلك التمكن مني فلم

أجد بدا منه فقلت ان أفضل الاعمال عند الله أجرا وأكثرها لله شكرا ما كان موشحا بالصلاح وأدى به الواجب فالسنة فالمستحب فيكون جامعا للمأمور به مانعا للمنهي عنه وذلك العمل الصالح هو الحج الى بيت الله الحرام ومشاهدة المشاعر الدينية وزيارة ضريحه صلى الله عليه وسلم والوقوف على الامكنة المشرفة والمقامات المقدسة فعزمت حينئذ على التوجه وتوكلت على الله وأخذت في تهيئة الاسباب اللازمة وتجهيز الاعمال الواجبة بعد ان أقمنا مقامنا من نعتمد عليه في الاهل والقضاء الشرعي ورسمنا خطة نسير عليها في الذهاب والاياب تجمع لنا بين الفريضة والفضيلة امتثالا لأداء الواجب وحبا في الاطلاع على احوال الامم والتزمنا ان نأتي في رحلتنا هذه للقراء بما يشفي الغليل ونكشف القناع عن المخدرات وان لا يكون بحثنا مقصورا على النقط الدينية بل يتناول كل ما يهم القارئ من المسائل العمرانية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية مما لم يسبقني اليه أحد راجيا بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام والمسلمين

(العزم على الرحيل)

عادة ان المراكب البحرية الناقلة للحجاج مزدحمة بالناس وهو ضرر جسيم بالركاب ولذلك رأينا من الصالح ان نسافر قبل معالم الحج بزمن يمكننا التفرج على البلاد الواقعة في طريقنا واعتمدنا على الله وعزمنا على السفر فجمعت الاهل والاقارب وأوصيتهم بتقوى الله وبما فيه صلاحهم فجاءت الوفود لمقابلتنا من كل فج عميق وتزاحمت الفضلاء والعلماء والاصحاب من بين عزيز وشفيق فتبودلت بيننا ألفاظ الوداع والقوم بين داع ومبتهل بحالة يعجز عن كتابتها قلم اليراع وكنت أرى فيهم احساسا شريفا وشعورا مقدسا يحركان أفئدتهم عطفا علينا وشفقة بنا مبتهلين الى الله تعالى أن تصحبنا السلامة في طريقنا وأن يردنا الى مستقط الرأس في رجوعنا

ففي الساعة السابعة مساء ليلة الجمعة (١٠) من ذي القعدة سنة (١٣٣١)

الموافق (١٠) اكتوبر سنة (١٩١٣) شيعنا الجم الغفير الى محطة بلدتنا معسكر ثم ودعت الجميع وأعينهم تفيض من الدمع وصاحتهم داعيا لهم بالدعاء الصالح ثم ركبنا القطار السريع قاصدين مدينة الجزائر التي منها سفرنا وعليها رجوعنا

وصاحبني في هذا السفر المبارك ابن أختي السيد محمد الشريف ولازمني مدة سفري حتى رجعنا من الحجاز الى مصر بعد أداء الفريضة وتركته مجاورا بالازهر الشريف لطلب العلم كما أنه ركب معنا فريق من أصحابنا ليؤنسنا بأطيب الكلام ويصبرنا على مشاق السفر فوصلنا الجزائر عاصمة القطر الجزائري الساعة السادسة صباح يوم الجمعة وأقمنا فيها بقية يومنا ويوم السبت وصباح يوم الاحد وكانت معارفنا في هذه المدة القصيرة تتزاوح علينا غدوا وعشيا فغشينا السرور بهذه الوجهة المقدسة الى الاماكن المطهرة التي لا تشد الرحال إلا اليها

غير أنه خالط هذا السرور رما اعترانا بمفارقة الاحباب حين أزف الركب على الرحيل من الكآبة والحزن وشدة الاشواق ورقة العطف والاشتياق فامتزج ذلك الفرح بتلك الاحساسات النفسانية والانفعالات الوجدانية فتغلبت جيوشها على جنود القلب فسابت منه الصبر ونزعت منه الثبات فجاءت الدموع كالمطر المدرار تتدفق والكبد من التأثير الباطني بالاسى يتمزق فذرفت در رمجراها العينان وتلوثت من لجين مائها البنان

فلولا أن الله ألقى في قلوبنا روحا من عنده وثباتا من فيضه ورحمة من فضله حتى استرد القلب صبره والفؤاد تمزيقه لكنا من شدة الوجد سكارى وفي واد من التيه حيارى

ثم ودعنا القوم بجأش القلب وركبنا في الساعة السادسة صباح اليوم المذكور الموافق (١٣) ذي القعدة سنة (١٣٣١) — (١٣) اكتوبر سنة (١٩١٣) سفينة بخارية في الدرجة الثانية وتعرف بيورك الالمانية فصعد بعض أصحابنا

معنا وبقينا نتجاذب أطيب الكلام حتى الساعة العاشرة فنزل الى البر أصحابنا ثم رفعت السفينة مراسيها وأخذت ترد اليها مقاذيفها بعد أن كانت ثقلت بها نفسها وفكت من الوثاق حبالها وهي تظللنا سحابة من بخارها وتحكي لنا نغمات البلابل بمزمارها

وشرعت في التباعد قليلا فقليلا عن الشاطئ وربانها في النهاية من الكمال في السرعة في حركاتهم كانهم في ألعاب رياضية أو اشارات عسكرية ونحن على ظهرها كالصبي في المهد محدقين الى البلد والشواطئ وما أحاط بها من البساتين فنرى كل ذلك يتصاغر في رأي العين شيئا فشيئا حتى خفي عن أعيننا كانه لم يكن شيئا مذكورا وبقينا ما بين سماء وماء والسفينة تمخر في اليم بمقدمها ومؤخرها من غيران يحصل لنا في سيرها ألم فكانها حية تسعى حبوا على بطنها فوق كثيب من الرمل ترى لها طريقا ولا تسمع لها حسا ولا صوتا ولا همسا وتجري بنا في موج كالجبال فتشتتها قطعا تذهب بها أدراج الرياح ولا يقف أمامها موج إلا جعلته كانه لم يكن شيئا مذكورا في الوجود فلم يبق لسلطان البحر قوة ولا لجنوده سلطنة على المراكب البخارية بل أصبح البحر بما فيه من عجائب الحيوانات أسيرا للبحارة وطوع أمرهم يسخرونه في طرقهم كيف شاؤا وسواء في ذلك الاماكن العميقة والمحيطات المتلاطمة عكس حالة المتقدمين حيث كانوا دائما تحت أمارة البحر وسلطنة جنوده وجيوش الارواح تجري بما لا تشتهي السفن لما في تلك الاساطيل التي لا تخرج عن أخشاب ومسامير وقلاع من الضعف المستمر

وأما الاستعداد القائم على قدم وساق من حيث المأكل والمشرب فقد تقدم وصفه فلا حاجة لاعادته ولما كان الطبع من حيث هو يميل بطبيعته الى جنسه وهو اليه أقرب تجد ركاب السفينة تميل أنفسهم مع اختلاف أجناسهم الى معرفة بعضهم بعضا يصعدون في النهار فوق السطح ويتجاذبون الملح من الكلام وبعض النوادر بالادب والكمال والتفرج على المناظر

الجميلة وهكذا حتى يقبل الليل فيذهب كل واحد الى مضجعه وقضينا مدة السفر البحرية فى تنزه باهر وحظ وافر من جميل المناظر الطبيعية ففى مساء اليوم الثانى رأينا من بعد شبحا يخيل لنا مخالفا لزرقة مياه البحر ولم نزل نقترب منه شيئا فشيئا حتى انكشف من بين الغمام والامواج وتحقق لنا أنه شاطئ البحر فى تمام الساعة الرابعة مساء (١٦) اكتوبر حتى دخلت السفينة ميناء مدينة (جوه) الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط التابعة لمملكة ايطاليا فرست مثاقيلها فى الماء ونزلنا للتفرج عليها فوجدناها تروق الناظر نظافة شوارعها متسعة وأسواقها كذلك غير أن السكان ملتفة مساكنهم المتينة وغير منتظمة ولا منتسقة نظر الوجودها على جبال ذات أودية فترتفع المساكن لست طبقات وعدد سكانها (٢٨٠,٠٠٠) نفسا تقريبا وهى أحسن مدن ايطاليا فى التجارة ولها مزية عن بقية مدائنها ببهجة طرقها المنقورة فى الجبال المتكاثرة ولذلك تجد مصابيح وقناديل معلقة على الدوام باذيال عربيات القطار ذهابا وايابا

وأما قصورها فهى مشيدة الاركان متقنة البنيان يلوح عليها العظمة والقوة وكل من يراها يظن أنها مدينة الملوك وأحسنها القصر الملوكى المفروشة أرضيته بخشب الجوز و بالمرمر النفيس و بداخله كثير من الاوانى الذهبية والفضية ذوات المبالغ الثمينة والمقادير الجسيمة

وأحسن متنزهاتها متنزه (أكومولى) وهو موضع فسيح فوق جبل عال تنكشف لمن صعد فوقه جميع المدينة وضواحيها والبغازات والبساتين وطريقه ملتف كالثعبان فى الاعوجاج الا أنه لجودة صناعته تسير فيه العربيات والمركبات بكل سهولة فتجتمع فيه سكان المدينة فى كل عشية لاستنشاق النسيم وتغيير الهواء ازالة لعناء البدن مما يجده حال انكبابه على الشغل والعمل فى النهار وميناء هذه المدينة متسعة ومأمونة للسفن وفيها كنائس كثيرة ككنيسة (ماراندراوس) وكنيسة (البشارة) وكنيسة

(الدومو) وكنيسة (مارلورنسو) التى بنيت فى القرن الثالث للميلاد على المحل الذى مات فيه (مارلورنسو) مقتولا فى سنة (٢٦٠) بعد الميلاد وهى مفروشة بالمرمر النفيس الابيض والاسود المنقوش نقشا فاخرا وفيه أخشاب تدهش العقول لاتقان صناعتها و بداخله جثة (ماريوحنا) ويوجد فيه أيضا عدة ذخائر نفيسة موضوعة فى صندوق من الفضة البيضاء و بالجملة فمقبرة هذه المدينة ذات أهمية كبرى لاعتناء المتقدمين بتشييد الكنائس وطرزها باجمل مايزيدها فخرا وقد احتوت على ذخائر ثمينة وجواهر نفيسة

فقابلنا حين دخلنا رئيس هذه الكنيسة ولاطفنا بوجه بشوش وكلام رقيق فسألنا باللسان الفرنسوى وهو يتقنه جيدا وفصيح فى منطقه وأديب فى مواجهته وأرانا منقوشات وآثار تلك الكنيسة وغير ذلك من ذخائرها كنا نود أن تكون مقابلتنا مع غيره فى اللطف والاحساس الظريف كما قابلتنا معه لكنه من الاسف ان الامر بالعكس تجد طباعهم وحشية وأخلاقهم رديئة ولا يميزون بين الخبيث والطيب و بالاخص رجال الضبط والحرس مثل البوليس عنده من الغلظة والخشونة ماينفر العامة عن رؤيتهم فضلا عن مكالمتهم ومن باب اولى الغريب فى بلادهم فلا يوقرونه بخلاف ماهو متأصل عندنا فى رجال الحكومة من اللين فى الكلام وانشراح الصدر لمن رام مقابلتهم و بساطة الوجه والتبسم فى المنطق الدال على الاخلاق الحميدة فصدق من قال (ان الطبع يغلب التطبع)

وكنا نرغب أن نمر فى سفرنا هذا على رومة عاصمة ايطاليا وكرسى مملكتها لقدم هذه المدينة فى تاريخ العالم وشهرة وقائعها الحربية المتتالية من قبل الميلاد و بعده ونفاسة آثارها العتيقة و بقاياها قد ماء الرومانية وغير ذلك من المدهشات الغريبة فحال دون رغبتنا ضيق الوقت وقرب أوان الحج فاكتفينا بما رأيناه على سواحل البحر ومع ذلك لم نعدم فائدة فقد سألنا عن كل مايهم القراء

فنفيدهم اجمالا بزبدة من مزاياها فنقول

(رومة)

مدينة رومة هذه كانت من قديم الزمان قاعدة ممالك المسكونة وعاصمة المعمورة باسرها وسميت باسم بانيها (روميلوس) فى سنة (٧٥٣) قبل الميلاد ثم خضعت للحكم الجمهورى فى سنة (٥٠٩) قبل الميلاد وحاصرها أنيبال تحت أسوارها فى سنة (٢١٤) ق م [1] ثم تحرقت بالنار فى سلطنة نيزون فى سنة (٦٣) بعد الميلاد ثم سارت تحت سلطنة المغرب فى سنة (٣٦٥) ب م [2] ثم نهبها (الوديك) فى سنة (٤١٠) ب م ونهبتها المسلمون فى سنة (٨٤٦) ب م ثم دخلها (كارلوس) الثامن الفرنسوى ملك فرنسا فى سنة (١٤٩٤) ب م وأصيبت بالطاعون سنة (١٥٩٠) ب م وغرقت حين فاض عليها نهر التيكولى سنة (١٥٩٨) ب م وأعيدت بعض أسوارها فى سنة (١٦٤٢) ب م ثم أصيبت بزلزلة والفيضان من النهر المذكور فى آن واحد سنة (١٧٠٣) ب م ثم احتلتها دولة فرنسا فى سنة (١٧٩٨) ب م وفى سنة (١٨٠٩) ب م ثم قامت فتنة بين البابا الرئيس الدينى وجمهور الممالك الرومانية فى سنة (١٨٤٨) ب م وانتهت بنزع حكم الامة من يد البابا الى مجلس النواب وهكذا لم تزل هذه المدينة مسكينة ويتيمة بين مدن الدنيا لما رأته من الحوادث والمشاكل المتنوعة وتبادل السلطنة فيما بين الجمهور والبابا واغارة الاجانب عليها فى أزمنة متعددة ليس ماذكرناه فقط

وهواء هذه المدينة جيد الا فى مسافة أربعة شهور حيث تكثر فيها الحمى والامراض وتهب فيها رياح الجنوب الشرقية المعروفة عندهم (بسيوركو) ويعتدل الطقس فى بقية السنة وتعداد سكانها كان فى الزمن القديم يبلغ مليونين فنقص بسبب توالى الحروب والمذابح الى (٥٠٠٫٠٠٠) نفسا منها (١٥٠٠) قسيسا و (٢٨٣٢) راهبا و (٢٢١٥) راهبة المخلصين لاوامر البابا الرئيس الدينى المسيحى

(١) ق م معناه قبل الميلاد (٢) ب م معناه بعد الميلاد

ولهذه المدينة اثنا عشر بابا وهى أبواب مشيدة على أسوار متينة ويذكر فى كل باب بالنقش جميع الوقائع التاريخية التى انتصرت فيها تلك المدينة وهبطت أخرى ومبنية أيضا على سبع جبال طبيعية مختلفة الاسماء ولذلك تجد طرقها مصعدة ومنحدرة ومفروشة تارة بالاحجار الصغيرة المتساوية غير أنها ملتفة فيضيع الغريب فيها

وأما شوارعها فانها مستطيلة ومتوسطة الاتساع ونظافة شوارعها مختلفة فالجهات التجارية المزدحمة بالناس تجدها نقية وأما الخالية من المارة فلا تسأل عن قذارتها وتنقسم الى قديمة وحديثة فالقديمة هم سكان الجبال المذكورة والحديثة مبنية فى غوطة ظريفة يقسمها نهر (التيكولى) الى قسمين غير متساويين فالقسم الشمالى يبلغ طول أسواره خمسة وعشرين كيلو مترا والجنوبى ثمانية عشر كيلو مترا وتسير فى هذا النهر قوارب كبيرة غير أن ماءه لا يصلح للشرب بسبب اختلاط القاذورات به وأوساخ البلد وعملت عليه ستة قناطر لاتصال قسمى البلد ببعضهما وجميعها مزينة بأنواع التماثيل الرخامية النفيسة والمياه التى تسقى منها البلاد وتأتى اليها من جبال بعيدة بواسطة مجارى مصنوعة من قديم الزمان

ومن منتزهاتها جبل (البنيشيو) وهو مشحون بالبساتين والرياض الزاهرة والقصور الفاخرة والمبانى العالية التى تنشرح لها الصدور وفيها منتزهات أخر كثيرة يتردد عليها أهل البلد والسواح للتفرج على المناظر الطبيعية وسماع الالحان الموسيقية المعدة لهذا الغرض كل عشية ويظن المار فيها أنها محاطة باسوار خضرة بسبب اتقان غرس الاشجار وترتيبها بكيفية منتظمة ظريفة فيكاد الشخص أن لا يفارقها

وفيها وسط الشوارع نحو الخمسين حوضا من المياه معمولة من المرمر المنقوش بقلم المعلمين القدماء الذين اشتهر واباتقان هذه الصناعة الدقيقة وأحسنها بركتى (بولينا) و (ترميقا) اللتان لا يمل الانسان من الوقوف تجاه

كل منهما طول النهار

وفيها نحو (١٤٨) رحبة فسيحة ولكل منها تاريخ مخصوص يفيد أسباب بنائها وما وقع فيها من الحوادث المهمة وفى كل منها ساعة كبيرة وفيها ساعة تدق (٢٤) مرة لا (١٢) فقط كالمعتاد وفيها المبانى القديمة كالمساجد والقصور وأبواب النصر مايدهش العقول لانها مع مرور الزمن نحو (٢٠) قرنا عليها فانها لم تزل فى المتانة والصلابة التى لا مزيد عليها منها بناء باب نصر (تيطس) و (الكولسيو) العجيب الذى بناه (وسياسيانوس) وطوله (٥٤٦) متر وارتفاعه (٥٢) متر وكان يدخل اليه عدد (٨٧٠٠٠) نفس من المتفرجين خلاف أصحاب الملاعب البحرية وكان يصعد على سطحه نحو ٢٠٠٠٠ نسمة وهو فى الحقيقة من الاشياء التى تستحق أن تذكر فانه مع مرور الايام عليه ومكابدة الاهوال الجسيمة لم يتهدم منه الا القليل

ومما هو من شكل المساجد وليس منها بنيان مشيد الاركان مرتفع نحو (٤٥) متر وهو مركب على أعمدة هائلة وقد بناه (اغريباوس) فى سنة (٢٦) ق م المنقوش اسمه عليه باللغة اللاتينية ويعلو مسقفه قبة جميلة موضوعة على حائط يبلغ عرضه نحو خمسة أمتار ونصف وهو المحل الوحيد الذى لم يقدر على الاتيان بمثله الزمان وفى بعض الابنية القديمة عمود أسطوانى ارتفاعه نحو ١٨٢ متر يصعد اليه بالسلاليم وهو ملون بالنقش الدال على حالة الرومانيين السالفة وباعلاه تمثال من نحاس أصفر وبجوار هذه الاعمدة مبان قديمة قد علاها التراب واليوم أصبحت مكشوفة وهى على طرز ما وصفناه

وأما ضواحى هذه المدينة فانها قفر مقبوضة يلوح عليها هيئة سفك الدماء والهم والحزن والغم فانه على مسافة ميلين منها لا يرى الانسان نوعا من النبات الاخضر الا نادرا فان ملوكها الرومانيون والقياصرة المتقدمون وأبن ثروتهم وجنودهم المشهورة بشدة الباس والقوة فسبحان الحى الدائم الذى لا يموت

وأما كنائسها فتبلغ نحو (٣٨٩) كنيسة وأكبرها كنيسة (مار بطرس)

وهى تعد أعظم كنيسة فى الدنيا وأظرفها صناعة واتقانا فتاتيها الناس من أطراف المسكونة فى كل سنة نحو (٤٠٠) ألف زائر للتمتع بمنظرها بما قد وصلت اليه أعمال اليد فى الازمان الغابرة وقد بناها قيصر (قسطنطين) فى سنة (٣٢٦) بعد الميلاد ولم يزل البنيان والنقش والزخرفة يتزايد بتجدد القياصرة حتى تمت على هذه الحالة العجيبة وتقدر اليوم تكاليفها بمائتى ألف (٢٠٠٠٠٠ ، ٤٥٠ ، ٢٥١) فرنكا وذلك خلاف النقش بماء الذهب والرسومات الفاخرة التى تكلف أموالا جزيلة فيقدر نقش الملبوسات بنحو خمسة من الملايين فرنك

وأمام هذه الكنيسة رحبة فسيحة محاطة بمائتين وأربعة وثمانين عمودا لشكل مستدير على ثلاثة صفوف وطول كل عمود نحو عشرة أمتار ومكللة هذه الرحبة بتماثيل الشهداء وفيها سلم يصل الى جهة الكنيسة ويبلغ عرضه نحو (١٢٠) مترا وعلوه (٢٩) مترا وعلى بعض الاعمدة تمثال المسيح وتماثيل لتلامذته الاثنى عشر وطول كل تمثال خمسة أمتار ولهذه الكنيسة خمسة أبواب هائلة من النحاس الاصفر المنقوش ببديع النقش والباب الاول منها مسدود لا يفتح الا بعد مرور (٢٨) سنة فيفتح مرة واحدة باحتفال هائل ثم يغلق الى مرور (٢٨) سنة أخرى وهكذا وطول هذه الكنيسة نحو مائة وسبعة وثمانين مترا وارتفاعها (١٣٢) مترا وعليها قبة كبرى ترتفع بمقدار (٤٣) مترا ويدخل هذه الكنيسة نحو (٥٤) ألف نسمة فى آن واحد لكثرة اتساعها وفى وسط الكنيسة على جهة الايمن تمثال مار بطرس من نحاس وقد ذاب قدمه الايمن من كثرة لمس الايادى والتقبيل ويعتقدون أن فى هذه القبة الكبرى أى تحتها القماش الذى رسم فيه وجه المسيح والحربة التى طعن بها فى جنبه كل ذلك فى داخل قبره وسط الكنيسة حيث دفن فيه (مار بطرس) وينزلون اليه بسلمين وفيه (١٤٢) مصباحا من الذهب والفضة موقدة على الدوام ماعدا يوم الجمعة الحزينة ويوجد قبور لهذه

الكنيسة للباباوات السالفين وفيها أنواع الملبوسات الاثرية كثيرة وفيها أيضا الهياكل العظيمه وهناك كنيسة أخرى تسمى (ماريوحنا دلاترابنو) فهى كبيرة وظريفة جدا وقيل انه يوجد فيها قضيب لسيدنا موسى عليه السلام وكرسى المائدة الذى جلس المسيح عليه السلام عليه مع تلامذته وفيها محل للمعمودية قد بناه الملك (قسطنطين) وفيها السلم المقدس وهو مركب من (٢٨) قطعة من الرخام النفيس قيل ان هذا السلم قد صعد عليه المسيح أربع مرات فى أرشليم ونقلته القدسية من هناك الى رومة ولذلك يعتبره بعض الناس انه من أعظم شىء يتبرك به موجودا فى الدنيا وأما بقية الكنائس وان كان فيها كثير من الآثار والذخائر الثمينة لكن لا تصل الى ماذكرناه ولذلك اقتصرنا عليها

فيتضح مما تقدم انه لا ينقص شىء من الاشياء التاريخية القديمة المار ذكرها مع انه لا ينبغى الوثوق بجميع ما يقال وعلى النمط المتقدم قصر الرئيس الدينى الباباوهو من الابنية الغريبة وتوالت عليه الدهور والعصور ومحترم عندهم جدا وفيه من القاعات المفروشة والنقوش القديمة والحلوات المتعددة مالا يدخل تحت حصر

ثم لما قضينا الوطر فى مدينة جنوه ركبنا السفينة وقامت تودع تلك الهياكل الجاهلية الرومانية بمزمارها وأدت لها تحية سلام ثم أخذت فى المسير ونحن فى غاية من الاندهاش من هذه الآثار القديمة التى تدل من نفسها على قوة تلك الامم الماضية قبل ان يظهر الاسلام وكانت معبوداتهم وقتئذ أغلبها تماثيل وحيوانات وغير ذلك ممن يعبد الشمس والقمر والنجوم ولله فى خلقه شؤون

ثم أرست السفينة مراسيها على مدينة (نابولى) على ساحل البحر الابيض المتوسط التابعة لمملكة ايطاليا أيضا

وهذه المدينة لها شهرة عظيمة قد عمت الآفاق وتقصدها الناس

بالخصوص من أقصى الارض وأدناها لجودة هوائها اللطيف ونسيمها النقى وزينة مبانيها ونظافة أهاليها حتى ان الحكماء قرروا بما فيهم الاطباء انها أحسن بقعة تليق لعلاج المرضى ولو لم يكن لها مزية تذكر الا هذه لكفاها بالانفراد فى الجمال عن بقية مدن الارض ومبانيها تختلف من ست طبقات الى ثمانية وهى فى غاية من المتانة والاتقان ومما زاد هذه المدينة بهجة وقوعها بمكان طبيعى تحيط به حلة من الجبال المغطاة بالاشجار وكثرة النباتات وباطرافها وضواحيها مدائن صغيرة وقرى مشيدة على طرز ظريف حتى انك لا تجد أرضا فى الخلاء الا وعلمها نقوش أثرية ولا مزرعة الا وعليها خدود الطبيعة بها مخطوط ومبسوط ويبلغ عدد سكانها (٥٦٤،٠٠٠) نفساً وسميت باسم مالكها (نابولى) وهى قديمة فى التاريخ وقد أسست قبل الميلاد ثم لا زالت تزداد اتساعا كلما تجدد عليها الدور حتى بلغت هذه الدرجة ومما زادها تقدما ملك (كارلوس) قيصر الروم فى سنة (١٢٧٠) للمسيح وهو الذى بنى القصر المعروف بالقصر الجديد

ولما دخلتها دولة اسبانيا زادت أيضاً فى كثرة قلاعها من سنة (١٥٣٢) الى سنة (١٥٥٤) وهدمت خنادق القلاع التى كانت من قبل واستبدلتها بشارع عظيم وهو أحسن شوارع المدينة يبلغ طوله نحو (٢٠٠٠) مترا وأهالى المدينة يستقون بواسطة مجراتين قديمتين احداهما تخرج من جبال النار وتسقى جهات المدينة المنخفضة ومازاد على السقى ينصرف الى البحر فى المجارى والساقية الاخرى تسمى (اكوادى كارمينيانو) منسوبة لبانيها فى سنة (١٥٢٩) بعد الميلاد وهى تسقى أعالى المدينة وطول هذه المدينة من الشرق الى الغرب كيلومتران ومن الشمال الى الجنوب أربع كيلومترات وسطحها يبلغ نحو (٢٤) كيلومترا مربعا بما فيها ضواحيها وحولها عدة قلاع وحصون لمحاصرتها والشاطىء البحرى منها منقسم الى أقسام ثلاثة بوغاز تجارى وبوغاز حربى وبوغاز صغير وبداخلها رصيف ومتنزه وفيه القصر الملوكى وهو

مرغوب جدا عند أهالى المدينة وتحيط به صفوف من الاشجار المتنوعة كالعساكر ومستشرفة على البحر ينشرح صدر من يتنزه فيه و يذهب الحزن لحسن المناظر التى يراها المتنزهون الجامعة بين البحر والبر و بداخل هذا المتنزه محل يسمى (اكواريوم) وهو مظلم يحتوى على نحو ستين خلوة من البلور مملوءة بالماء وفى كل منها أصناف كثيرة من السمك بحيث انه يوجد فيها ما ينوف عن ألف صنف منها جنس يشبه النبات فيظنه من يراه نباتا ولكن بعد امعان النظر فيه يجده متحركا من محل الى آخر وله جملة أفواه يفتحها و يأكل بها ونحو ذلك من الارهاط العجيبة الطبيعية التى تثبت لنا وجود الخالق المتصف بالقدرة التامة

و يوجد متنزهات أيضا بخارج المدينة فى ضواحيها ولكنها لم تبلغ درجة هذا المتنزه وأمام رحباتها فكثيرة وفيها أعمدة ركبت فوقها تماثيل من نحاس وغيره ومنقوش بها أسماء القياصرة من الروم

وأما كنائسها ففيها ما يزيد على ثلاثمائة كنيسة وتحتوى على قبور القدماء من الملوك قبل المسيح و بعده وغير ذلك على ما سبق نظيره فى مدينة جنوه من التماثيل والتصاوير والهياكل والنقوش والجواهر الثمينة مما يدهش العقول و يثبت لنا تقدم تلك الامم الغابرة فى بداعة صنعتها وفيها كتبخانات متعددة منها ما يحتوى على مائتى ألف مجلد ومنها ما يحتوى على ثلثمائة ألف مجلد وكلها بديعة فى النظافة وجميلة فى الشكل والصورة

فلما قرب سفر المركب اكتفينا بما استطلعناه ورجعنا الى المركب البخارى ثم قام يحرك جناحيه ليرد اليه قواه و يرنم بأصواته التى لا تقل عن صوت الرعد لينبه أهل البلد على مفارقته فحياهم بنغمات تلين قلوب الظاعنين ثم أخذ الشرق وجهته ومررنا ونحن فى المركب على جبال نارية وأعلام جهنمية شهيرة من قديم الزمان بانفجارها نارا واحراقها كل ضواحيها وفى بعض هذه الجبال بركان يخرج طول السنة من قمته دخان لا ينقطع أبدا وفى كل بضع سنين

يتفرقع ذلك البركان فلا يترك صغيرة ولا كبيرة الا وأحرقها وصيرها رمادا بل هباء منثورا

ومن المشغوفين بالاكتشافات الغريبة سائح انجليزى يقال انه لما وصل الى هذا الجبل النارى الذى تقرب منه المتفرجون رأى الدخان يطلع من رأسه كقطع كبيرة من السحاب وفى أعلاه هيئة بئر متسع لا يعلم عمقها ولا قعرها الا الله فزادته هذه الغرابة اعجابا وكره أن يرجع كبقية المتفرجين من غير أن يطلع على حقيقة البركان والمغارة وكيف يصعد الدخان من ذلك المكان فغلب على عقله حب الاطلاع ولو فيه ذهاب نفسه وهلاك حياته فذهب بمرأى ومسمع من الناس يتشبث كهوف الجبل حتى اذا قرب من رأسه أوقفته غزارة الدخان الحار فلم ينزجر بل ارتجل وتقدم الى الامام ورمى رجله فسقط منهويا فى البركان وذهبت جثته أكولة للنيران

ومن العجب أيضا ان أهالى تلك الاراضى يجعلون قراهم بأطراف ذلك الجبل الجهنمى يعرضون أنفسهم للاخطار والمهالك وجيوش دخان تلك البراكين النارية تنذرهم كل يوم بان فى صدرها حقدا عليهم وأن وراءه الموت بالاحراق وخيرلهم أن يتباعدوا عن الحمى لكن طبع الله على قلوبهم فسواء عليهم أنذرتهم تلك الادخنة أم لم تنذرهم فهم لا يسمعون فنفذت فيهم تلك المزعجات حيث جعلت البراكين أسفل الجبل عاليه مرارا متعددة كما يستفاد ذلك من التاريخ

فلو لم يكن فى مملكة ايطاليا شئ يمجه النفس الا هذه النار القطيعة لكفاها فى أنها أقبح نقطة على أرض الله

(تكوين البراكين)

قال علماء طبقات الارض ان وسط الارض مملوء بالنار وسببه أن الارض فى مبدإ خلقها كانت كوكبا ناريا فسقطت من فلكه الى حيث هى مركوزة فى فراغها ثم علتها طبقة ترابية فمائية فهوائية وهكذا الى فلك القمر قالوا ان حرارة

النار تزداد فى لهبها بمقتضى طبيعتها فتحتاج بالضرورة الى التنفس ليخرج منها بخارها فحينما تكون فى أكثر حرارتها الشديدة تعمل ضغطا قويا مع جوانب الطبقة الترابية الموالية لها فتهتز الارض فتقع زلازل فيها بسبب هذا الضغط وأحيانا يحدث ضعف فى بعض جوانبه الداخلية للارض فتنفجر تلك الجوانب فتخرج منه مواد صخرية وأدخنة نارية وهذا ما يسمى بالبركان وأحيانا يقع هذا الانفجار فى أعماق البحار فيصير جزيرة لانه يتبع هذا الانفجار التراب والاحجار فترتفع فوق سطح البحر وهو السبب فى حدوث الجزائر وأما علماء السنة فلا يقولون بشئ من هذه التدقيقات الفلسفية ولا يصدقون بها كما أنهم لا يكذبون شيئا من هذا القبيل الا اذا كان مخالفا لما وردت به السنة والكتاب والاجماع

وقبل النهاية على ما رأيناه فى مدن سواحل ايطاليا بالبحر الابيض المتوسط نأتى للقراء بنبذة من تاريخها وجغرافيتها

كانت هذه المملكة فى الزمن القديم تسمى ستوربنا بفتح السين ثم سميت ايطاليا نسبة الى (ايطالوس) الملك الذى أتاها من (أركاديا) وحكمها ثم خضعت بعد ذلك للرومانيين فى أيام (روموليوس) و بقيت على هذه الحالة حتى انقضت دولتهم فى سنة (٤٧٦) بعد الميلاد ثم خضعت للسلطنة الشرقية فى سنة (٥٥٢) وخضعت أيضا (لشارلمان) فى سنة (٧٥٢) المؤسس للسلطنة الغربية عوضا عن السلطنة الرومانية التى انقرضت وتتوج عليها امبراطورا فى سنة (٨٠٠) فصارت من ممالك سلطنته وانتقلت من بعد مماته الى عدة ولايات واضطربت الاهالى بسبب الفتن الداخلية

و بينما هم فى هذه الاحوال المحزنة اذ خاف البابا على نفسه فاستنجد بالبابا يوحنا ملك جرمانيا لينقذه فاجابه الى ذلك فاحتلت جرمانيا ايطاليا باجمعها وصارت تحت امارتها فى سنة (٩٦٢) الى سنة (١٢٦٨) ثم أخذت استقلالها شيئا فشيئا حتى تم لها الامر فى سنة (١٥٠٤) حين وقع النزاع بين

دولة فرانسا واسبانيا عليها ثم استولت عليها اسبانيا تارة والنمسا أخرى فى القرن السادس عشر ثم خضعت كلها الى نابليون الاول فى سنة (١٨٠٥) و بقيت تحت أمره الى سنة (١٨١٤) ثم تفرقت واستقلت كل ولاية منها الى سنة (١٨٦٠) ثم اتحدت هذه الولايات مع مملكة سردينيا فى سنة (١٨٦١) ومع البندقية فى سنة (١٨٦٦) وأصبحت بهذا الاتحاد قوية ذات بأس وشدة بعد أن كانت عرضة للمطامع وأكيلة للذئاب الجياع

وهذه المملكة من أحسن جهات أوربا بالنسبة لاعتدال هوائها ما عدا جهاتها الداخلية وجبالها وأوديتها مكسوة على الدوام بالابسطة الخضراء الطبيعية ومن معادنها الرخام والحديد والنحاس وغير ذلك فلو كانت أهاليها ملتفتة الى تحسين أحوالها المعاشية لكانت أحسن الممالك بسبب كثرة أنهرها وخلجانها وخيراتها الطبيعية لكن تراهم تاركين أراضيهم مهملة ومنتشرين فى افريقيا وأوربا طلبا للاكتساب فى حين أن بلادهم تسعهم وزيادة و فى ذلك من سوء السياسة ما لا يخفى

و بلاد ايطاليا تحدها شمالا دولة فرانسا من جهة وسويسرا من جهة أخرى وشرقا بحر (ادرياتيك) وجنوبا وغربا بالبحر الابيض المتوسط ومساحة سطحها نحو (١٢٠٠٠٠) ميل مربع وعدد سكانها نحو (٣٣) مليون ونصف وفيها جبال شامخة مثل جبل كورنولو البالغ ارتفاعه (٩٥٢٠) قدما هذا وأكثر ما فيه من الطرق المنقورة وكذا الآثار المشروحة كلها من عمل قدماء الرومانيين وليس لايطاليا فيها شئ أبدا لان أهميتها لم تبلغ مرتبة أسلافها ولا ما يقرب منها وشجاعتها فى الحروب معروفة عند كل من له علم بالحرب الطرابلسية

وأما أهميتها فى البحر فلا تنكر لكن ضباط تلك الاساطيل لا يحسنون صنعا بخلاف ما نراه من القواد العظام من جيش دولتنا الفرنساوية ذوى الخبرة التامة بسياسة الحرب واتخاذ الطرق الموصلة الى المطالب بالسهولة من

غيران تجد امامها عوائق تذكر وزد على ذلك سيرها بوجه العدل والانصاف حسبما شوهد ذلك فى احتلالها لمراكش ولم نسمع بهتك حرمات ولانهب أموال وغير ذلك مما ارتكبته ايطاليا فى طرابلس من القتل والنهب وذبح الضعفاء من النساء والرجال والبنين من غير جرم والرمى بالرصاص لآلاف مؤلفة من البشر وهذه الوحشية والبربرية البالغتان النهاية فى الفظاعة لم يقع مثلهما الا فى القرون البالية التى تجد ايطاليا وقائعها مسطرة فى كنائسها فيجوز ان تكون تلك الافعال الشنيعة انتقلت اليهم ممن قبلهم فى حال يدّعون أنهم متمدنون وفى بحبوحة الحضرية متمتعون كلا وألف كلا * والى هنا قد انتهى بنا الكلام على ايطاليا * ولنشرع فى الكلام على الاقطار الحجازية حماها الله

ففى يوم (٢١) من اكتوبر حظينا بالوصول الى بورت سعيد وألقى مركبنا مثاقيله بعيدا من الشاطئ فاخذ نازورقا ونزلنا فيه الى البلد فدخلناها صباح اليوم المذكور وكان مرورنا بالطبع على مصلحة الديوان كما هو الجارى فى البلاد المنتظمة فاخذت منى هذه المصلحة بعض رسوم لا تذكر غير انه لما رأونى مسلحا ببندقية طلبوها منى لان مرور السلاح عندهم ممنوع فناولتها لرئيس مصلحة الديوان والتزم بارسالها الى السويس ونستلمها هناك وكتب لى وصلا بعد ما دفعت له ثلاث فرنكات أجرة الحمل فرأيت من هذا الديوان العمومى ومتوظفيه الذين بيدهم زمام الامر أجمل ما يكون من الادب والملاطفة فى الكلام وفصاحة المنطق واظهار البشاشة وانشراح الوجه والتبسم الظريف فى وجوه الوافدين من السواح والزائرى المدينه وهى ثانى ميناء تجارية بعد اسكندرية فى القطر المصرى وتبلغ تجارتها نحو خمسين مليون فرنك فى السنه وهى على البحر الابيض المتوسط وبعد ان قضينا زمنا قليلا ركبنا القطار بالسكة الحديدية الساعة الخامسة مساء متوجهين الى قنال السويس ففى اثناء الطريق بمكان يعرف بالاسماعيلية انتقلت الى قطر آخر حيث ان الاول ذاهب الى القاهرة ولم تمض الساعه (١٢) مساء حتى وصل

بنا القطار ميناء قنال السويس ونزلنا بالغرف المعدة للزائرين وكانت هذه المدينة جميلة المناظر وطقسها جيدا وهواؤها صحيا وهى طريق السفن البحرية الذاهبة من أوروبا الى آسيا ولها تجارة كبيرة من واردات الهند والشرق الاقصى وواقعة على البحر الاحمر

وفى اليوم (٢٣) اكتوبر الساعه (١٢) وقت الزوال ركبنا فى القطار الى مصر القاهرة فوصلنا لها الساعة الخامسة مساء يوم الاربعاء وبقينا نتنزه فى عجائب مصر وضواحيها طول النهار على ظهر العربة تارة والقطارات السريعة تارة أخرى واطلعنا على مساجدها العتيقة وآثارها القديمة وبساتينها الجميلة ومناظر نهر النيل الفخيمة وقناطره المتينة والتزمنا المبيت بجوار سيدنا الحسين بلوكندة الكلوب المصرى هذا ولنترك تفاصيل مصر وشرح سياحتنا فيها حتى ننتهى من الكلام على الاقطار الحجازية حيث اننا دخلناها مرتين قبل الحج وبعده ثم فى (٢٦) رجعنا الى السويس منشرحين بما أوجب لنا اعجابا مما سيأتى تفصيله ان شاء الله

فبينما نحن نتمنى الاجتماع برفقة مأمونة فى العشيرة نركن اليها ونستأنس بها فى الطرق الحجازية اذ بشروق شمس وصول حضرتى الفاضلين الاخوين السيد الحاج بكير بن داود ورفيقه السيد الحاج قاسم بن بكير المزابيين الى السويس وكانت وجهتهما أيضا أداء فريضة الحج وحظينا بهذا الاجتماع الذى امتلأت منه القلوب سرورا وانفجرت من ينابيعه انشراحات للصدور وحيا بعضنا بعضا بجميل التحيات المباركات

وبعد البسط والانشراح انفقت كلمتنا على ان نكون فى بقية الطريق كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا طلبا للاستئناس وحبا فى الارتفاق والتقوّى بالجماعة حيث ان يد الله معها فضلا عما كنا نعده من هذين الفضيلين من كرم الاخلاق وحسن السيرة فى الارتفاق

ثم عمدنا الى ميناء السويس وهنالك أخذنا تذاكر السفر الى جدة وركبنا

فى الطبقة الثانية فى البابور الخديوى وأجرة النفر مائة فرنك فسافرنا ونحن فى غاية من الانبساط بما حصل لنا من هذا الاجتماع ولم يزل المركب البخارى سائرا حتى وصل الى جبل الطور يوم (٢٩) اكتوبر الموافق (٢٩) ذى القعدة الساعة الثامنة صباحا ووقف بالمرساة ثلاث ساعات ثم ارتحل ووصل قرية العريش فى اليوم التالى الساعة الثانية صباحا وقام من هناك الساعة (١٢) أى وقت الزوال ولم تزل الباخرة كذلك سائرة باسم الله مجراها ومرساها حتى حاذت وقربت من رابغ وبلدة رابغ هذه على عرض (٢٢) درجة و (٢٨) دقيقه وبينها وبين جدة (١٠٩) ميلا وشرعت الحجاج فى الاحرام على الوجه الشرعى من غسل ووضوء وتلبية وفى الساعة الثامنة صباح (٣١) وصلنا الى الينبوع وانتقلت الباخرة متوجهة الى جدة واهتمرت فى سيرها حتى صارت على بعد ساعتين منها أخذت مبانيها تظهر شيئا فشيئا حتى تجلت للعيان وحولها أكواخ يسكنها الدواب وبعض الاهالى وغالبهم من صيادى الاسماك ففى الساعة الثامنة صباحا من فاتحه نوفمبر (٢) من ذى الحجة ألقت المحروسة الخديوية مراسيها بميناء جدة بعيدة عن الشاطئ ثم نزلنا الى البلد وكانت ميناء جدة مملوءة بالمراكب البحرية التى أتت الى هذا الثغر بالحجاج من الهند والغرب وتركيا وروسيا ومصر والسودان وغيرها فازدحمت الناس وتكاثرت الحجاج والوفود

(مدينة جدة)

يحيط بجدة سور له خمسة أضلع طول كل ضلع يتراوح من (٥٠٠) متر الى (٨٠٠) متر وهذا السور بناه السلطان الغورى ملك مصر فى سنة (٩١٥) هجرية لمنع الافرنج الذين كانوا ابتدؤا فى استعمار الشرق وقد منع البرتغاليين من الدخول اليها فى سنة (٩٤٨) هجرية واصلتهم قلعها نار احامية ففروا الى مراكبهم تاركين الذخائر الكثيرة

وشوارع جدة لا نظام فيها ويحتوى سطحها على نحو (٣٥٠٠) مترا

وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التى تملأ بماء المطر أو من العيون التى هى خارج المدينة وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها ملحة غير صالحة للشرب وهى مركز تجارى لعموم الحجاز منها صادراته واليها وارداته وتجارتها تكاد تنحصر فى اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والانواع العطرية والبقول والجلود والسجاجيد وجميع مايهم الحجاج وتجارتها الرئيسة فى الحبوب خصوصا القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة أهل بلاد العرب من أدناها الى أقصاها وتجلب اليها من الهند والشام ومصر وتعداد مدينة جدة لم يعرف بالضبط ولكن يقرب نحو خمسين ألف نفس منهم الافرنج نحو مائة وأغلبهم أروام والباقى مسلمون وفيها مدرستان ابتدائيتان وأهم مايدرس فيهما شىء بسيط من الكتابة والمطالعة والحساب والنحو بالعربية والتركية وفيها أربعة مساجد للشافعى والمالكى والحنبلى ومسجد عكاشة وهو أكبرها وحكومتها اما مايرجع فيه الى مصالح البلاد فتحت قائمقام التركى وأما مايرجع فيه الى مصلحة العرب خصوصا ضواحيها فتحت وكيل أمير مكة المكرمة

وفى موسم الحج تجد فيها حركة مستديمة من الحجاج الواصلين اليها ويلاقيهم المطوفون أو وكلاؤهم فيعرف كل جهة من الحجاج اسم مطوفهم فيذهبون معه ليقضى لهم مصالحهم من احار جمال وشراء شقادف ومتوسط ثمن الشقدف خمسة وعشرون فرنك وأما الجمل المشقدف فاجرته غالبا ضعف ذلك

﴿ مقبرة جدة ومدفن أمنا حواء ﴾

يوجد خارج المدينة بنحو كيلو متر مدافن المسلمين وعليها سور يفتح بابه للغرب فاذا دخلت منه وجدت امامك رأس قبر طويل ممتدا الى جهة الشمال طوله مائة وخمسون مترا وارتفاعه متر وعرضه ثلاثة أمتار وتعتقد العامة ان هذا القبر لامنا حواء وهو عندهم محترم جدا يزوره الناس من كل فج عميق

وأقوال المؤرخين فيه مضطربة و يحتمل ان يكون هيكلا وضعته قبيلة قضاعة التى كانت تسكن تلك الضواحى معبودا لها قبل الاسلام كما كانت قبائل كلب ومراد وهمدان وحمير يعبدون (وداو يغوث و يعوق ونسرا) وهى على ما يزعمون أولاد سواع بن شيث ولما جاء الاسلام أبطل كل ذلك وأما طول القبر بهذا المقدار فيحتمل ان يكون أخذه العرب فى ضمن ما أخذوه من ديانة اليونانيين قبل الاسلام فقد كانوا يقيمون الهياكل للنجوم منها هيكل الزهرة الذى بناه الضحاك فى صنعاء اليمن و بالجملة فلا يبعد ان يكون قبر حواء من الهياكل المقدسة قبل الاسلام و بقى أثرا لامومة مزارا للناس بعد الاسلام وكان شريف مكة عون قد هدم كثيرا من القبور القديمة التى خرجت من حد المزارة الى كونها معبودة ومن جملتها هذا القبر لما أراد هدمه منعه قناصل الدول بدعوى ان حواء أم البشر ليست خاصة بالمسلمين فقط. وعلى كل حال فنحن نحترم قول العرب فى أمهم كما نحترم قول الافرنج فيها فهى أم الكل

والطريق من جدة الى مكة تدخل بين واديين جبلين أعلاهما يسمى القائم ثم تمر فى طريق على جبل يعرف بالرغامة وفيه قهوة للاستراحة ثم على جبل أم السلم وفيه قهوة العبد ثم يأخذ الوادى فى الميل الى الجنوب الشرقى حتى يصل الى بحرة وهناك يتسع الوادى و يقطعه وادى آخر يسمى وادى فاطمة وهو وادعظيم من أشهر أرض الحجاز خصوبة و يسكنه كثير من قبائل الاشراف الذين يملكون أغلب أراضيه و يزرع فيه جميع أنواع الخضراوات التى تجلب الى مكة وفيه عيون من الماء بكثرة وفيه بساتين من نخيل وأعناب والبرتقال والليمون وهناك عدة أكواخ يسكنها العرب و يوجد أيضا قهاوى للاستراحة خصوصا راكبى الحمير والهجين من الحجاج و يشترون ما يلزمهم من خبز وجبن وملح و بعض الفواكه و يأخذ الطريق من بحرة المذكور نحو الشرق يميل الى الشمال فيمر على حدة فيبيت فيها بعض القوافل ثم على قهوة سالم ثم على جبل الشمس ثم على المقتلة ثم الهجالية ثم البستان ثم قهوة المعلم ثم

الشيخ محمود وهو باب مكة المكرمة وفيه قبر جار الله الزمخشرى صاحب التفسير الشهير المعروف بالكشاف وكان قد أتى اليها حاجا سنة ٥٣٨ هجرية فمات بها يوم التروية ودفن بهذا المكان

وعلى طول الطريق أربعة وعشرون قلعة مملوءة بالجنود العثمانية على الدوام بعضها قديم والبعض الآخر حديث

ولما عزمنا على التوجه الى بيت الله مكة المشرفة فى (٣) ذى الحجة الموافق (٢) نوفمبر اتفقنا مع الجمالين على اجار المحمل بمبلغ سبعة عشر فرنك للراحلة فقام بنا الركب فى صباح ذلك وأمسى ببحرة المتقدمة بيانها فى صباح الغد الساعة العاشرة حظينا بدخول مكة المشرفة وألسنتنا تتبادر بالتلبية تارة و بالتكبير أخرى و بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وقلوبنا تكاد تنفطر وتنشق مما غشاها من هذه الحظوظ بالسرور والفرح بشهود هذه المشاعر الدينية تعظيما لحرمات الله «ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» فحمدنا الله تعالى على هذه المنة العظيمة والمنحة الجليلة ثم قصدنا دار الجماعة حيث أعدت للنزول وكنا أول من دخلها من الحجاج فوقع اختيارنا على الطبقة العليا من منازلها ثم قدم لنا طعام مهيأ من مقيمى البيت و بعد الاكل والاستراحة اغتسلنا وتوجهنا لطواف القدوم و بعد ان انتهينا من الطواف ببيت الله المنصوص عليه شرعا توجهنا أيضا للاتيان بالسعى بين الصفا والمروة فسعينا سبعة أشواط وكنت ترى فى هذين المشعرين العظيمين الجم الغفير من الحجاج يتراوحون زرافات متتالية ليلا ونهارا وأعينهم تفيض من الدمع وألسنتهم تبتهل الى رب البيت باصوات التكبير والدعاء حتى ان الواحد يرى نفسه كأنه فى عالم آخر لا كعالم الاجساد والاشباح بل فى عالم الارواح حيث ان النفوس البشرية الزاكية تتجرد فى تلك المقامات المحترمة عن العوارض الدنيوية التى كانت حجابا عنعها من الوصول الى مراتب الكمال ثم رجعنا الى محل اقامتنا مستبشرين بهذا الفضل الجزيل

ومن تمام الحظ انه قد اجتمعنا بمكة مع حضرة الفاضل الحاج الصالح بن موسى التاجر بتيارت وانضم الى سلك رفقتنا لنكون كالبنيان المرصوص ليشد بعضه بعضا

﴿ مقبرة مكة المكرمة ﴾

و بعد ذلك أردت زيارة المعلاة التى هى مقبرة مكة خارج بابها الشرقى لما فيها من الاضرحة المقدسة منها ضريح السيدة خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت فى سنة (١٢٩٨) و فى القبة مقصورة من خشب الجوز أقيمت على قبرها الشريف والى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر من الاشراف وقبالة قبة السيدة خديجة قبة السيدة آمنة بنت وهب والدة المصطفى صلى الله عليه وسلم و فى شمالها قبة أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم و بجواره قبة جده عبد المطلب وكلتاهما تجددتا فى سنة (١٣٢٥) هجرية وفيها غير ذلك من قبور الصحابة رضوان الله عليهم والصالحين

وتوجهنا أيضا لزيارة مكان مولد النبى صلى الله عليه وسلم وقد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف لمرور الدهور عليه و ينزل اليه بواسطة سلم من الحجر يوصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة و فى جداره الايمن مقصورة من الخشب داخلها رخامة قد تقهر جوفها لتعيين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه القبة والفناء يكونان دار ولادته وكان قد وهبها صلى الله عليه وسلم لعقيل ابن أبى طالب فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ثم اشترتها الخيزران أم الرشيد وجعلتها مسجدا وهى باقية كذلك الى يومنا هذا ثم قصدنا زيارة مولد السيدة فاطمة فى درب الحجر وهى دار خديجة بنت خويلد زوج النبى صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضا فينزل اليها بجملة درجات توصل الى داخلها ومساحتها

عشرة أمتار طولا فى أربعة عرضا وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وفيها يوصل الى مكان كان خاصا لعبادته صلى الله عليه وسلم وفيه ينزل الوحى عليه و بجنبه محل مساحته ستة أمتار طولا فى عرض أربعة كان يسكنه مع زوجه السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها و فى جهة اليمين باب يوصله الى غرفة مستطيلة فى وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذى ولدت فيه السيدة فاطمه رضى الله عنها و فى جدار هذه الغرفة الشرقى رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون انها من رحى السيدة فاطمه وهذه الدار هى التى كانت له مقرا صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته بمكة قبل الهجرة

فلما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى على هذه الدار عقيل ابن أبى طالب ثم اشتراها منه معاوية بن أبى سفيان فجعلها مسجدا وعمرت فى زمن الناصر العباسى وقد وضع فى حائط على يسار الداخل لوحا من رخام مكتوبا عليه بالحروف البارزة ما يأتى

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله وسلم عليه وعلى آله سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على الخلق أجمعين الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وجعل منافعه ومشتغلاته وأجره عائدا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى على ما يرى الناظر المتولى له فى ذلك من الحظ الوافر والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثواب الدار الآخرة تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبى البركات الذورانى الانبارى فى سنة أربع وستمائة ومن غير ذلك أو بدله فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله

الطاهرين * ثم قصدنا زيارة دار الارقم المخزومى المشهور بدار الخيزران وهى فى زقاق على يسار الصاعد الى الصفا وهى الدار التى كان يختبىء فيها صلى الله عليه وسلم فى أول بعثته هو ومن آمن معه وكانوا يصلون بها سراً حتى أسلم عمر رضى الله عنه فقويت به عصبتهم وجهروا حينئذ بالصلاة والاسلام وفى وسط الحائط يجد الشاخص غرفة وفى احدى زاويتيه حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين ﴾ ومكتوب فى الثانى

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وانشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الاصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاه وأنا له فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ﴾ والحرم الشريف بين بيوت مكة مائلا الى جهة الجنوب مما يلى جبل أبى قبيس وفى هذه الجهة دار الخيزران يليها شرقا شعب بنى هاشم ثم شعب المولد ثم شعب بنى عامر وفيه كانت منازل بنى عبد المطلب وفيها الآن كثير من الاشراف اما باقى قريش فكانوا فى الجهة الاخرى من الحرم خصوصا جهة الشمال ومن دونهم باقى أهالى مكة ويتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب الى الشرق وهو أكبر شوارعها ويختلف اسمه باختلاف الجهات التى يمر عليها فاذا ابتدأ غربا من جرول يسمى حارة الباب ثم الشبيكة حتى اذا وصل الى الحرم من جهة الشمال سمى الشامية فاذا انعطف الى الجنوب على يمين الحرم سمى السوق الصغير ثم جياد وفيه دائرة البوستة ومصلحة التلغراف وديوان

الحكومة العثمانية ويسمونه بالحميدية فاذا وصل الى الصفا سمى المسعى ثم الغشيشية ثم سوق الليل وهو يوصل الى باب مكة الشرقى أو باب المعلى

أما الشوارع التى فى شمال الحرم فهى الشامية وفيها سوق المدينة والقداره والنقا والسليمانية والجودية والبراضية وهذه الطرق تختلف سعتها من مترين الى خمسة عشر مترا وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم

وتعداد سكان مكة المكرمة يبلغ نحو ١٥٠ ألف نسمة منهم خمسون ألفا من الاهالى والباقون من الاغراب الوافدين من أنحاء المعمورة

وأهل مكة كلهم مسلمون ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الشريفة «يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» وكان على ينادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية «ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» وبقيت هذه السنة متبعة عند الخلفاء الراشدين والسلاطين الى يومنا هذا وأهل الحرمين أنفسهم يبالغون فى مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوبا ومحطة العلا شمالا أحد من الاجانب بالمرة وان فعل فما هو الا مورط لنفسه الى حتفه من أهالى البلاد ولم يكن فى قدرة الحكومة العثمانية ان تسمح الى أى واحد منهم مطلقا مهما احتيج اليه

وأما أفراد الافرنج الذين دخلوا مكة أو المدينة فى أزمنة مختلفة وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب مقاصدهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية انما كانوا يتزيون بزى المسلمين بعد ان يعرفوا اللغة العربية ويدعوا انهم على الدين الاسلامى نخص بالذكر منهم بوركارت السويسرى وبورتون الانكليزى وهو رجرونج الهولاندى وكورتلمون الفرنساوى وأولهم هو أسبقهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب وبوركارت السويسرى وفد أولا الى مصر ودخل الازهر بعد ان ادعى الاسلام وسمى نفسه ابراهيم المهدى

وتعلم فيه العربية ثم سافر الى بلاد العرب وأقام فيها نحو سبع سنين وكتب عنها وهو أحسن من كتب من الافرنج فى أحوال جزيرة العرب خصوصا فى صفة العرب وقبائلها ومات بمصر على زى الاسلام ودفن فى قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس ولا يزال قبره موجودا بها ومكتوب على شاهد تربته هذه الجملة (هو الباقى)

وفى زمن الصيف يشتد الحر بمكة فيخرج سراتهم الى الطائف ولها طريقان طريق القافلة يبعد عن مكة بمقدار ٣٦ ساعة وطريق البغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة ومدينة الطائف مشهورة بطيب هوائها لانها ترتفع عن سطح البحر بمقدار (١٥٥٠ مترا) وبكثرة بساتينها وجودة ثمارها وليس أحسن من هوائها الا هواء الهدى وهو جبل يبعد عنها بنحو ثلاث ساعات الى مكة ويرتفع عن سطح البحر بنحو (١٧٦٠) مترا وأهلها مشهورون بجمال الخلقة ونعومة البشرة وفيها قبر السيدين الطاهر والطيب ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر سيدنا عبد الله بن العباس رضى الله عنه ويقصده اليمانيون لزيارته قبل الموسم وله عندهم احترام كبير

ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبى صلى الله عليه وسلم وتقدم بيانه ومولد على وفاطمة ودار الخيزران ومسجد الجن ومسجد الراية ومسجد الاجابة ومسجد البيعة ومسجد أبى بكر ومسجد عمر ومن الاماكن المباركة خارجا حراء وهو الغار الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار مربعة وهو فى قمة جبل النور وفيه نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم لاول مرة وفى جبل الثور الغار الذى اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبى بكر حين قصدا الهجرة الى المدينة ومساحته نحو مترين ونصف مربعين وكان باب هذا الغار لا تبلغ فتحته الا نحو نصف متر عرضا فى مثلها ارتفاعا وكان الزائرون يصادفون مشقة فى الدخول اليه فكسره أمير مكة شريف عون رفقا بهم على زعمه وقد

أخطأ ولو علم انه أثر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتبرك به لا بقاه يقرأ الزوار فيه آية معجزة نسج العنكبوت وتعشيش الحمام * ومن المزارات أيضا جبل أبى قبيس وفيه مسجد بلال ومسجد انشقاق القمر وزاوية الشيخ السنوسى الذى له فى الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الاعراب على شيعته

وليس بمكة كتبخانة ذات أهمية الا كتبخانة بسيطة فى باب النبى صلى الله عليه وسلم وأخرى فى باب السلام تسمى بالكتبخانة السليمانية وقد كان بمكة كتب كثيرة مهمة موضوعة فى خزائن فى دار حائط الحرم سرق بعضها وذهب أغلبها حين أتى ديار مكة سيول خصوصا السيل الواقع فى سنة (٤١٧) وصعدت الى هذه الخزائن وأتلفت منها شيأ كثيرا وكان فى ذلك أكبر مصيبة وأعظم رزية على العلم والعلماء لانهم فقدوا مالا يصاحبه الزمان ولا يعوضه انسان وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التى فيها مثل زمزم والتى فى ضواحيها مثل الزاهر والعسقلانى وغيرهما أو من الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع أو من عين زبيدة التى يجرى ماؤها الى المدينة فى قنوات تحت الارض لها خزانات فى شوارعها تسمى البازان تملأ منها السقاؤن قربهم وهذه العين لها أهمية عظيمة جدا

﴿ عين زبيدة ﴾

هى من الآثار الجليلة التى تنسب الى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد رضى الله عنهما وكان السبب فى انشائها ان هذه السيدة البارة رأت فى حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والاهوال الكثيرة لقلة الماء فى تلك الانحاء فأمرت رحمها الله باجراء الماء الى أم القرى من عين حنين التى توجد فيها وراء عرفة الى جهة الشمال على مسافة نحو خمس وثلاثين كيلو مترا من مكة وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير فى واد حنين (الذى حصلت فيه فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة تلك الواقعة

المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين من هوازن وثقيف وثبت فيها عليه الصلاة والسلام ثباتا عظيما كما ابلى المسلمون فيها بلاء حسنا)

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيرا وأرسلت اليها العمال من جميع الاطراف فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادى النعمان الذى تنزل مياهه من جبال كدى وسيروا اليه سبع قنوات أخرى من الجهات التى تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الاعلى الذى وصل الى جنوب منى وعمل له بئر كبير فى الصخر يسمى بئر زبيدة وخرج من هذا المجرى فرعان أحدهما الى عرفة والآخر الى مسجد نمرة ولم يعرف الناس قيمة هذه العين المباركة الا فيما بين سنة (٩٣٠) وسنة (٩٧٠) فانها أهمل أمرها فى هذه الآونة فطم مجراها وتهدم بنيانها وانسدت منافذها وانقطع ماؤها وأصاب الناس من الاهوال شىء لم يكن يخطر بالبال وقد بلغ ثمن زق الماء (ثلاث ليرات تقريبا) فى عرفة فى غضون هذه المدة خمسة وعشرون فرنكا وسبب اهمال هذه العين فى هذه المدة ان ملوك مصر كانوا يعتنون بها و يقومون بعمارتها فى الغالب فلما تغيرت الاحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة (٩٢٣) هجرية ضمن أملاك الدولة العلية التى كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية فاهملت الدولة ترتيبها الداخلية حكومتها خصوصا ما كان بعيدا عنها

ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا فى سنة (٩٦٩) هجرية والتمسوا من السلطان سليمان اصلاح العين المذكورة وهنالك رجته كريمته صاحبة السمو الملوكى أن يشرفها باجراء هذا العمل المبرور من مالها الخاص وعينت مديرا للقيام بهذه المهمة وسلمته الاموال اللازمة فسافر من وقته الى مكة وشكل مجلسا من أهل الرأى فيها وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها و بناء ما تهدم من مجاريها ولما وصل الاصلاح الى بئر زبيدة بمنى أراد رحمه الله ان يسير به الى مكة

فاضطر الى النزول فى هذا الجبل الصخرى على مسافة نحو خمسة وعشرين مترا عن السطح فى مسافة طولها أكثر من كيلومتر ثم سيرها فى حضن الجبل القبلى حتى أوصلها الى مكة سنة (٩٧٩) هـ ومن ثم أخذت الدولة تقوم باصلاحها و يبلغ عرض هذه القناة نحو متر و ربع فى ارتفاع نحو متر ونصف وتقرب وتبعد عن سطح الارض على حسب ارتفاعها وانخفاضها ولها خزانات يملأ منها السقاؤن

(الحرم المكى)

كان الحرم المكى فى مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن وهى حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام فلما كثر سواد المسلمين زاد فيه عمر وعثمان شيئا مما اشتريا ه من الدور التى كانت حوله و زاد فيه عبد الله بن الزبير عند ما بنى الكعبة وأقام ما كان تهدم منه وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمره عمارة تذكر وتشكر وهو أول من نقل اليه أساطين الرخام ولما حج الخليفة محمد المهدى سنة مائة وستين رأى ان البيت ليس فى وسط المسجد فاشترى كثيرا من البيوت خصوصا فى الجهة الشرقية القبلية و زادها فى المسجد ثم أتى من بعده ابنه الهادى فاكمل ما نقص فى مدة والده وعلى هذا المنوال تتوالى يد المحسنين فى تحسين العمارة وتجديد ما أصابته الدهور الى الآن

والحرم من داخله على شكل مربع منتظم تقريبا طول ضلعه المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة (١٦٤) مترا وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا (١٦٦) مترا وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذى فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفا وتسعمائه واثنين من الامتار (من حساب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحج المصرى)

ويحيط بالحرم من داخله أربعة اروقة فيها ثلاثمائة واحد عشر عامودا

من الرخام يتخللها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشمسى الاحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد

أما أبواب الحرم فهى ثمانية فى الجهة الشماليه وهى باب دريبه وباب المدرسه وباب المحكمه وباب الزيادة وباب القطبى وباب الباسطية وباب الزماميه وباب عمرو بن العاص وفى جوار باب ابراهيم باب الحزوره وبقية الابواب على هذا المنوال باب آم هانئ ثم باب العجلة ثم باب الرحمه ثم باب أجياد ثم باب الصفا ثم باب بنى مخزوم ثم باب السنبلة ثم باب بازان ثم باب بنى هاشم ثم باب العباس ثم باب النبى صلى الله عليه وسلم ثم باب السلام ومجموع الابواب اثنان وعشرون ولكن منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة وللمسجد الحرام ست منارات الاولى منارة باب العمرة ثم منارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الحزورة ثم منارة باب الزيادة ثم منارة السلطان قايتباى والكعبة فى وسط صحن المسجد ويليها من الشرق مقام ابراهيم عليه السلام وفى الجنوب بقعة زمزم وشرقى زمزم باب شيبة وهو باب من الرخام فى وسط الحرم

وفى شمال المقام المنبر وهو من الرخام وفى غاية من حسن الصناعة والاتقان ومكتوب عليه بالخط الذهبى (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) اشارة الى مهديه وهو السلطان سليمان

(باب الكعبة)

يرتفع باب الكعبة على نحو مترين عن الارض ويصعد اليه بواسطة سلم مدرج يشبه شكل المنبر ولا يوضع فى مكان الباب الا عند فتحها فى الاحتفالات الكبرى ولا تزيد غالباً عن خمس عشرة مرة فى السنة وهذه أوقاتها تفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء وفى ليلة اثنى عشر من ربيع أول للدعاء للسلطان وفى ليلة سبعة وعشرين منه للدعاء أيضا للسلطان من غير أن يدخلها أحد من الزائرين وفى ليلة النصف من شعبان

للدعاء للسلطان وفى يوم الجمعة الاولى من رمضان وفى ليلة سبعة عشر منه وفى آخر جمعة منه وفى نصف ذى القعدة وفى ٢٠ منه لغسيل الكعبة وفى ثمانية وعشرين منه لاحرامها (أعنى احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) وفى كل مرة يفرد وقت للرجال أولا ووقت آخر ثانياً للنساء وتفتح فى موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر ياخذه خدمتها وتفتح الكعبة أيضاً فى نحو ٢٠ من ذى الحجة لغسيلها وله احتفال كبير يحضره الشريف والوالى ورؤساء مكة وعظماء الحجيج ويغطى سقف الكعبة وحيطانها من الداخل بكسوة من الحرير الوردى

(كسوة الكعبة)

كان السلف الصالح يهتم كثيرا بكسوة الكعبة خصوصاً العباسيين ولم يتركوا حريرا ولا ذهبا ولا فضة وغير ذلك من الجواهر النفيسة الا بذلوه بطيب خاطر فى كسوة بيت الله الحرام واستمرت هذه العادة يتوارثها الخلفاء والسلاطين حتى استقر الامر اليوم على ان كسوتها من الداخل تاتى من الاستانة ومن الخارج تاتى من مصر حيث لها وقف خاص لهذا الغرض وتقدر التى من مصر سنويا بمبلغ (٤٥٥٠) جنيها مصريا وبالعملة الفرنساويه نحو (١١٣٧٥٠) فرنك وهى مركبة من ستائر ثمانية من الحرير الاسود مكتوب على كل واحدة منها لا اله الا الله محمد رسول الله وطول الستارة نحو خمسة عشر مترا ومتوسط عرضها خمسة أمتار وكل ستارتين تعلقان على جهة من الجهات الاربع للكعبة ويربط الكل فى أعلاها بواسطة حلقات فى غاية من المتانة ويربط الجميع فى محيط البيت حزام من أربع قطع مصنوعة من الخيش المذهب ويكتب على هذه الستائر آيات قرآنية بخطوط جميلة وهذه الستائر مطرزة بالذهب والفضة ما يزيدها مهابة وجمالا

(الحج)

الحج سنة قديمة جدا فى الامم والغرض منه على كل حال أمر دينى محض

وان كان الاجتماع فيه لايخلومن فائدة دنيوية تزيد فى رقى الامة أدبياً ومادياً . وقد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحجون الى هيكل معبودهم ايذيس . وفتاح . وامون واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنا الى هيكل ديانا فى قرية افسوس وفى القرن الثانى قبل المسيح انتقلوا الى معبد ميزاقا فى أثينا . واليابان كانوا يحجون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور فى ولاية اسجى ويجب زيارته على كل فرد منهم ولو مرة واحدة فى العمر والصينيون يحجون الى هيكل معبود تيان من زمن بعيد جداً والهنديون لايزالون يحجون الى هيكل جاغدنات أوهيكل الورى فى حيدر اباد وهو محفور فى الصخر على طول فرسخين واليهود كانوا يحجون قبل المسيح باربعة عشر قرنا الى المكان الذى به تابوت العهد وكانوا يحجون اليه ثلاث مرات فى السنة وكان أكبر سبب لعمارة اورشليم (بلاد الشام) حتى أحرقها طيطوس الرومانى وأجلى اليهود عنها سنة (٧٠) مسيحيه ومازالوا بعيدين عن بيت المقدس حتى افتتحها المسلمون سنة ٦٣٦ ميلاديه فاقرهم عمر رضى الله عنه مع النصارى على ما كان لهم فى بيت المقدس ثم انقطعت عليهم طريقها بسبب الحروب الصليبية حتى استولت دولة بنى عثمان على ارشليم سنة (١٥١٧) هجريه وهم يحجون الآن الى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان فى الجهة الغربيه من المسجد الاقصى ويسمونها البراق . أما النصارى فانهم يحجون الى بيت المقدس من سنه (٣٠٦) للمسيح وأحيانا يحجون الى كنيسة قديس بطرس برومة وتقدم بيانها وهم يحجون أيضا الى كنيسة لورده فى جنوب فرانسه بعد ان شاع فى أور بابان السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنين من رعاة هذه المدينة وهناك ماء يتبركون به ويبعثونه الى أطراف المعمورة للتبرك أيضاً والعرب كانت تحج من ثمانية عشر قرنا الى الكعبه المكرمه لانهم كانوا يعتقدون انها بيت الله . فلما جاء الاسلام من زمن ابراهيم عليه السلام أقرهم على ذلك

واحترام الاحجار فى الناس قديم جدا فمنهم من كان يعبدها لذاتها ومنهم من كان يجعلها رمزا لآلهتهم كقدماء اليونان والرومان ومن جملة الاحجار المقدسة القطعة التى تحج اليها اليهود بحائط المسجد الاقصى ويبلغ طولها نحو (٤٨) مترا فى ارتفاع مترين ويزعمون انها القطعه الوحيدة الباقيه من هيكل سليمان عليه السلام ويحترمونه كثيرا جدا وللنصارى أحجار كثيرة أيضاً ببيت المقدس وقد بلغ تقديسها منهم الى حد لايمكن تكييفه ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند المسلمين واليهود والنصارى على السواء صخرة بيت المقدس التى كانت محل قربان أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام والتى كانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة ثم صخرة أيوب يتبرك بها آلاف من الناس وخلق كثير من جميع الآفاق

والحجر المحترم عندنا معشر المسلمين هو الحجر الاسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة فى الركن الاقرب الى الباب ليكون مبدأ للطائفين وهو من المشاعر الدينية كالاحرام والوقوف بعرفة والسعى والطواف والرمى وان كان الحكم يختلف بين الوجوب والركنيه والسنة . ولاعبرة لما ذهب اليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامى وكتب عليهما ماتهوى نفسه وترمى اليه سياسته وقال ان المسلمين فى حجهم يعبدون الحجر الاسود الذى هو أثر من آثار الوثنية العربية الاولى

ونحن نقول يكفى فى الرد عليه مقالة السيد عمر بن الخطاب حين خاطب هذا الحجر فى حجته بقوله (اما والله انى أعلم انك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ماقبلتك) ودرجة اسلام عمر لاتخفى على أحد ولو علم هذا الكاتب مكانة ذلك الخليفة ومتانة اسلامه وسبقية فضله وان المسلمين كلهم من أطراف الارض على طريقته لما تفوه بما هو جاهله وأيضا لو علم عقيدة المسلمين المبنيه على متانة يصدقها العقل

السليم وهى افراد مولانا عز وجل بالعبودية وماعداه بما فيه الحجر الاسود عبيده ومخلوقاته ولكن جهله بعقيدة الاسلام ورطه فى القول بالوثنية التى لا بقية لها فى مواطن المسلمين

نعم ان الحجر الاسود عند المسلمين محترم مكرم ومعظم لا لذاته بل لكونه شعارا من حرمات الله تعالى تعرض عليه الناس أفواجا منهم من يستلمه ومنهم من يقبله بالفم ومنهم بالاشارة من بعد فليس الاستلام شرطا بالفم مثاله على التقريب أعلام الدول ورايا تها التى لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش الملون مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها بل تحترم لكونها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك ولذلك ترى الجيوش العظيمة والامم المتكاثرة ينصبونها أمامهم خاضعين لها وصولة سيوفهم تحت امارتها

(خروج الحجيج الى عرفة)

فى السابع والثامن من شهر ذى الحجة تبتدى الناس فى الخروج من مكة الى عرفات محرمين على جمالهم أو حميرهم أو على أقدامهم و يتجهون الى طريق المشرق مارين بالمعلى ثم يسيرون نحو المشرق بميل خفيف نحو الجنوب بين الجبلين فى وادعرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة متر وحركة الناس لا تنقطع فى هذين اليومين و بعد نحو ثلاث كيلومترات من نهاية مكة تجد جبل النور على يسارك وقمته عاليه جدا قد أقيمت عليها قبة بيضاء يسطع نورها الى السماء . وكان النبى عليه الصلاة والسلام يتعبد فيه وكان أول ما نزل عليه الوحى فى هذا الجبل و بعد نحو خمسة كيلومتر تصل الى منى فترى فى مبدا الدخول فيها من طريقها العمومى جمرة العقبه وكثيرا من المساكن و بعدها ترى الوادى يتسع على طول اثنين كيلومتر وتشاهد به على يمينك مسجد الخيف ثم يضيق و يسمى بوادى محسر حتى يصل الى المزدلفة وهى من منى بمسافة نحو ساعتين ثم ياخذ فى الاتساع وهنالك ترى المشعر الحرام الذى يجب الوقوف عنده فى النزول من عرفه وفيه مسجد على جبل قزح عمره

السلطان قايتباى ومن هناك يضيق الوادى ثانيا و يسمى بوادى عرنة حتى اذ قرب من مسجد نمرة اتسعت ارجاؤه شمالا وجنوبا وهنالك تجد جبل عرفه قد حلق على الوادى وطرفه من الشمال يسمى بجبل الرحمه وفى أعلى جبل الرحمة منارة يعلق فيها ليلة عرفه قناديل لارشاد السالكين اليه وهو موقف الخطيب والمكان الذى وقف فيه صلى الله عليه وسلم

(الوقوف بعرفة)

عند وصول الحجاج الى الوادى المذكور ينزل ركب المحملين بخيامهم قريبا منه من جبل الرحمة ترى حجيج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص أما باقى الحجيج فانه ينصب الخيام فى بطن الوادى الذى يحشر اليه الناس حتى لا تكاد ترى فيه مكانا خاليا من واقف أو قاعد و فى الحجاج فى هذا المكان مع شدة الازدحام حركة مستمرة وأصوات مختلفة وأدعية متضرعه وأشكال متنوعه و يوم الوقوف وهو التاسع من ذى الحجه مع قليل من ليلة العاشر وقف جميع المسلمين بعد صدور الامر من القاضى برؤية الهلال على الصفة الشرعيه لا بالرصد و بعد صلاة العصر يتحرك المحملان الى منحدر جبل الرحمه و يصعد خطيب عرفه ﴿وهو فى الغالب قاضى مكة الذى يتعين من قبل السلطان﴾ بناقته الى صخرة فى صدر هذا الجبل و يخطب نيابة عن السلطان خطبه يعلم الناس فيها مناسك الحج و يكثر فيها من الدعاء والتلبية ومن دونه يبلغون بايديهم مناديل يشيرون بها فى كل تلبية الى الواقفين فيقول الكل لبيك اللهم لبيك بصوت يكاد يصعد بالفؤاد الى عنان السماء فيا لها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالكلية من أنفسهم حتى لا يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة وتقلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم والناس فى ذلك بين داع وباك ثم تتحرك المحامل بضرب المدافع والموسيقات وأصوات الابتهالات وانهمال العبرات ثم يقصد الحجيج المزدلفة بازدحام هائل

فبعضهم ببيت و بعضهم يقيم قليلا ومنها تؤخذ الحصى لرمى الجمرات فى منى
التى يبيت فيها الكثير من الحجاج ليلة الاضحى و فى صباح عيد الاضحى
وهو يوم النحر يكون عموم الحجاج وصلوا الى منى ثم يرمون الجمرات
فيحلقون فيلبسون ثياب زينتهم ثم ينزلون الى مكة فى مساء الثالث عشر لاداء
الركن الباقى وهو طواف الافاضة

والوقوف بعرفة فى حجنا وافق يوم السبت التاسع من ذى الحجة فوقفنا
فى هذا اليوم مع الحجيج وتأخرنا للتالى بسبب اختلال الرؤية فجمعنا بين
الرأيين ثم نزلنا الى منى على ماشرحناه مما تقدم كل ذلك برأى ومسمع منا
ولما تمت لنا فريضة الحج بفضل الله تعالى ابتدات حركة الجمالين فى
شوارع مكة تزداد وقتا بوقت ليلا ونهارا وهى تنقل الحجاج بحمولهم الى
حيث يذهبون منهم من يرجع الى جدة ومنهم من يسلك طريق العشارى
يراوهو الذى وقع عليه رأينا بعد مشورة فخيمة الشريف وعظماء مكة * ثم فى
يوم الجمعة ١٥ من ذى الحجة بعد الصلاة وطواف الوداع قامت القوافل على
ساقها ومن جملتها قافلتنا فخرجت للمبيت باطراف مكة فى صباح السبت قام
ركب الحجيج وتوجه على متن الطريق الى المدينة المنورة لزيارة خير الوجود
عليه الصلاة والسلام و بقية الاضرحة المقدسة والطرق التى تسير عليها
الحجاج أربعة السلطانى والفرعى والقائد والشرقى والطريق
السلطانى هو أحسنها سيرا وأكثرها ماء فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب
العمرة وتمر على المحطات الآتية (وادى فاطمة) وفيه ماء عذب يأتى من
جبال الطائف و (عسفان) ماؤه قليل و (خليص) بها بئر وماؤها غزير
و (القديمة) قرية قرب البحر و (رابغ) قرية على البحر الاحمر وماؤها من
الآبار و (مستوره) ماؤها غض و (بئر الشيخ) و (ديار بنى حصاة)
و (الحمراء) قرية بها نهر ماؤه عذب وفيها بساتين و (الجديده) ماؤها عذب
وهى قرية بها مدفن السيد البرعى صاحب الديوان فى المدح و (بئر عباس)

ماؤها قليل (و بئر درويش) و (آبار على) فيها ماء عذب وهى قرية على
بعد خمس كيلومترات من المدينة المنورة

والجمل الذى هو سفينة تلك البقاع ينقسم الى قسمين جمل الشقدف
و يركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤنتهما اليومية والثانى جمل الحمل
يحمل المتاع و يركب فوقه واحد فقط

وأجرة الجمال تقدر بمعرفة شريف مكة و ينادى بها المنادى فى زقاق
مكة وشوارعها لكن الجمالة يمقتون بالحجاج بعد الابتعاد عن مكة و يلحون
فى السؤال و يغلظون لهم فى الاقوال فتسمع أصواتهم من كل جهة و يكثر
بينهم و بين الحجيج الاخذ والرد فى الكلام ولا ينتهى الا باخذ ما يريدون
وفى وقت نزول القافلة وقيامها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم وقد يتفق
جمالك مع جمال آخر فيحضر فى الوقت الذى يلهيك فيه بصريخه وصياحه
فينتهز الآخر فرصة باخذ أمتعتك وأثاثك وهنالك يكثر الصياح فيقول هذا
خرجى و يقول الآخر ملابسى وغيره بصيح لحافى وهكذا و بعد هرج
ومرج يسكت الصائحون مفوضين أمرهم الى الله تعالى وليست المصيبة
قاصرة على فرد دون آخر بل ترى الضجة والصراخ من أطراف القافلة باجمعها
فهذا يصيح و يقول ياحاج فلان وذلك ينادى ياحاجة فلانة والبعض يوهم انه
شاهد الحرامى وآخرون مشتغلون بنصب خيامهم وفريق يتصايح مع جاره
الذى زحزحه عن مكانه وتسمع فيما بين ذلك أصوات الاعراب هذا يقول
الحطب الحطب والآخر يقول الماء الماء وهكذا وماهم الا سارقون كل
ماتصل اليه أياديهم و يفرون من حيث لا يشعر بهم أحد و بالجملة فتستمر هذه
الفتنة متقدة فى ذلك الفضاء نحو ساعات من الزمان أعنى ريثما ينزل الحجاج
حمولهم و ينصبون خيامهم و يمهدون فراشهم بين رحالهم وهنالك يبدؤن فى
جلب الماء والحطب وتجهيز غذائهم بمساعدة جمالتهم وكل رفقة من الحجاج
تتناوب فى الحراسة على أمتعتهم ليلا وقت النزول ولا يستطيع أحد منهم ان

يتباعد عن مناخه الا بانيس يراعيه ان أراد قضاء حاجة ولو خرج منفردا فقليلا ما ينجو من أشقياء الاعراب فيسلبونه بعد ان يوجعوه ضربا فقد يؤدى الضرب الى حتف أنفه ولذلك ترى الناس فى قوافلهم جلوسا قياما نياما وكثيرا ما يتظاهر بعض الجمالين بالصلاح فى الطريق حتى اذا استامن الحاج المسكين أخذ يصلح حموله فيقف الجمل مدة الاصلاح حتى تبتعد القافلة سلبه وأخذ أمتعته والحاج مسكين يستغيث ولا يغاث وأحيانا يحزون أنفاسهم ويفرون بجمالهم حيث شاؤا ولم نزل سائرين فى تلك الاراضى ومجدين فى السعى بكل طاقتنا والمحافظة التامة بقدر ما تسمح به قدرتنا مع بذل العطاء من الاكل والشرب والاحسان الى جمالتنا لان أخذ خواطرهم داعية الى اخماد نارية حقدهم واطفاء شرارة غضبهم مع أخذ الحذر منهم أولا قبل غيرهم فكنا بهذه الطريقة فى مامن فى طريقنا والحمد لله

ففى يوم الثلاثاء ٢٦ ذى الحجة الساعة العاشرة صباحا حظينا بالدخول الى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وقلوبنا مملوءة بالسرور وأعيننا تفيض من الدمع تكاد تهور واهتز الوجدان بناطر باوا عترانا من الانشراح ما أخذ بمجامع القلوب شيئا عجيبا ومع ذلك فالسنتنا لا تنفك عن الثناء والدعاء والصلاة والاستغفار والتوبة والاسترجاع والحوقلة والتكبير ثم توجهنا الى منزل الشيخ حمزة الرفاعى فقيه الشيعة علما وأحسنهم خلقا وأجلهم كرما وهو الزاهد الورع حقا فتلقانا ابنه الجليل ذو الخصائل الحميدة والفضائل الجميلة السيد أحمد وبصحبته اخواته الفضلاء وأفردوا لنا منزلا هيؤه لخصوصيتنا وبالغوا فى اكرامنا بما هم أهله

ففى صباح غد (يوم الاربعاء) توجهنا لزيارة سيد المرسلين شفيعنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فدخلنا بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة فهنالك وقفت النفس بالمركز الذى ينبغى لها تلقاء هذا الجلال

وهذه العظمة فكنت ترى الروح بجموعه والقلب بخشوعه والطرف بدموعه واللسان بخضوعه ترفع عبارات السلام الى سيد الانام وبعد السلام والدعاء والتحية انتقلنا الى مقام سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فسلمنا ودعونا ثم الى مقام سيدنا عمر رضى الله عنه فسلمنا ثم دعونا وكلاهما قريبان من الشباك ثم توجهنا الى حائط المقصورة الشرقى ووقفنا بباب السيدة فاطمة فسلمنا ودعونا والناس فى هذا المكان الرفيع خضع خشع ثم قرأنا ما تيسر من القرآن فخرجنا والقلب يذوب خشوعا والحشاشة تتصبب دموعا ثم رجعنا الى محل اقامتنا والقلب يتطاير فرحا

وفى يوم الخميس توجهنا لزيارة ضريح سيدنا حمزة رضى الله عنه وهو عم النبى صلى الله عليه وسلم

وفى يوم الجمعة صباحا قصدنا زيارة البقيع وهى مقبرة المدينة المنورة وفيها من الصحابة والصحابيات والشهداء والصالحين والعلماء والعظماء ما لا يدخل تحت حصر

فابتدأنا بزيارة قبة سيدنا عثمان بن عفان ثم قبة سيدنا ابراهيم بن النبى عليه الصلاة والسلام ثم قبة زوجات الرسول وأمهات المؤمنين عليهن رضوان الله ثم قبة سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن على فى الزاوية القبلية الغربية بالبقيع ومقصورة سيدنا الحسن فخيمة جدا وهى من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية ثم زرنا أيضا كثيرا من قبور الصالحين والتابعين

ومن حسن الحظ قد التقينا فى المدينة المنورة مع حضرة الفاضل المحترم الحاج عيسى بن موسى التاجر بقصر البخارى فتم لنا الحظ الاوفر به وزادت رفقتنا قوة وبهجة بفضيلته لما نعهده فيه من طهارة الاخلاق وعزة النفس وكمال المروءة ولازمنا بقية الطريق الى الاستانة العلية ثم رجع الى مصر حيث انه من الاسف ناخرت به السفينة ولم يدرك الوقوف بعرفة وبقى الى السنة القابلة ندعو الله أن تصحبه السلامة

(الحرم المدنى)

الحرم المدنى وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم واقع فى وسط المدينة مائل الى الشرق وهو لطيف الشكل جميل المنظر على هيئة شكل مستطيل طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر مترا وربع وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون مترا وخمسة وثلاثون سنتيمترا ومن جهة الباب الشامى ستة وستون مترا وينقسم فى وضعه الى قسمين المسجد والصحن والمسجد يبتدئ من قبلة عثمان أى الحائط القبلى الى الصحن من جهة وفى طول ما بين باب الرحمة وباب النساء من جهة أخرى وهذا القسم جميعه مسقوف وفيه المقاصير التى أقيمت على ارتفاع نحو اثنى عشر مترا على أعمدة من الصوان المكسوة بطبقة من المرمر الموشاة بماء الذهب والقسم الثانى وهو الصحن ويسمونه الصحوة شكله مستطيل أيضا ويحيط به أروقة وفيها قواصير على أعمدة فوقها قباب تناطح السحاب وعدد جميع الاعمدة بالحرم الشريف بما فيها الملتصقة بحوائطه يبلغ ثلثمائة وثلاثة وعشرين عمودا وقريب من باب التوسل محل خاص بالاغاوات خدمة الحرم الشريف ولهم ميضاة تخصهم أيضا وهناك محل للزيت المعد لانارة الحرم وفى وسط الصحن حظيرة صغيرة يحيط بها سور من شباك الحديد وفيها بعض نخل صغير حول نخلة عالية يقال انه أثر نخلة كانت للسيدة فاطمة رضى الله عنها فى هذا المكان وقبالة الحظيرة بئر ماؤها عذب لذيذ اسمها بئر النبي وبعضهم يسميها زمزم المدينه ومن وراء هذه الحظيرة محل خاص بالنساء عليه شباك من خشب على طول الرواق الشرقى ففيه صلاتهن واقامتهن بالحرم وفى جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم النبوى وهى مسطبة نحو ١٢ مترا طولا فى ٨ عرضا وترتفع عن الارض بنحو ثلثى متر وكانت فى عهده صلى الله عليه وسلم مكانا لاهل الصفة ويواجه هذه المسطبة دكة أخرى جنوبا متصلة

بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال وكانت مكان هجوده صلى الله عليه وسلم ويفصل بين الدكتين طريق الى باب جبريل شرقا وعلى يمين الداخل منه دكة يجلس عليها شيخ الحرم والى جوارها مخزن خاص للادوات اللازمة للمقصورة الشريفة التى توجد فى الجهة القبلية الشرقية للحرم والروضة الشريفة فى غربى المقصورة الشريفة وهى مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلى الله عليه وسلم وسميت روضة للحديث الوارد فيها (ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة) وهى تبلغ اثنين وعشرين مترا طولا فى نحو خمسة عشر عرضا ويفصل الروضة عن زيادتى عمر وعثمان شباكان من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانها وفيها مما يلى هذا الشباك مصاحف قرآنية مختلفة الحجم ويوجد أيضا بكثرة نسخ من دلائل الخيرات كل ذلك وقف على الروضة ومعد لقراءة الزوار القرآن والدلائل وفى غربى الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم وهى آية من آيات الله فى كمال بهجتها وجمال صنعتها وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بان يحول قبلته الى الكعبة المكرمه والى غرب القبلة المنبر الشريف وهو من الرخام المنقوش بالذهب الفاخر وهو على غاية من الجمال وفى النهاية من الدقة فى الصناعة أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثمانى الى الحرم الشريف سنة ٩٩٨ للهجرة

فوضع فى المكان الذى كان فيه منبر النبي صلى الله عليه وسلم

ويوجد للحرم المدنى نحو خمسين خطيبا يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة فى السنة طبقا لترتيب مخصوص لا يتعدونه وأما خدمة المسجد النبوى وهم الاغوات فيبلغ عددهم نحو مائة شخص ولهم أوقاف مخصوصة ومرتبات تاتيهم سنويا من الاستانة وللحرم أيضا خدمة آخرون غير الاغوات من غير أجر انما ينتظرون الاحسان من الناس

والحرم مفروش بانواع السجاجيد العجمية الثمينة وفيه أبسطة نفيسة

كثيرة خصوصا فى الروضة الشريفة فهو فى غاية من البهاء وفى الكمال من النظافة واللطافة والرونقة حتى ان من دخله لا يودان يبارحه وللحرم خمسه أبواب باب السلام وباب الرحمة وباب المجيدى وباب النساء وباب جبريل (أو باب البقيع) وتقفل هذه الابواب كلها من بعد العشاء الى قبيل الفجر وهى سنة من عهد عمر رضى الله عنه

﴿ أصل الحرم المدنى وعماراته والزيادة فيه ﴾

الحرم الشريف يحتوى الآن على مسجده صلى الله عليه وسلم وعلى بيت عائشة التى دخل عليها فيه فى الشهر السابع للهجرة ويشتمل أيضا على حجرات أزواجه رضى الله عنهن مع الزيادة التى زيدت فيه وكان يحيط بمسجده الشريف فى مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته وأصحابه رضى الله عنهم وأول من جدد فى عمارة المسجد النبوى عمر رضى الله عنه فبنى حوائطه ووسع فيه قليلا وأما عثمان فقد زاد فيه الى قبلته الجنوبية وفى سنة (٨٨ﻫ) أدخل الوليد بن عبد الملك حجرات أزواجه صلى الله عليه وسلم فزاد فى اتساعه شرقا وغربا وجنوبا وبنى له أربع مآذن وفرش أرضه بالرخام وكساسقفه بالذهب ثم زاد فيه المهدى العباسى سنة (١٦٠ﻫ) وقام بعمارته أحسن قيام ثم تداولت عليه عمارات متعددة الى سنة (٨٨٦ﻫ) سقطت صاعقة على المسجد فاحرقته جميعه بحال مريعة لم ير الراؤن مثلها ولم يمكن لاهل المدينة ان يقوموا فى وجه النار الا أن تلك النار لم تمس الحجرة الشريفة بالمرة ثم بمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباى ملك مصر أمر فى الحال بنقل جميع عماله الذين كانوا يشتغلون فى الحرم المكى الى المدينة ومازالوا يعملون فى الترميم بهمة فائقة فى الحرم المدنى حتى أتموه على أحسن هندام على هذا القوام الحالى وزاد على ما كان عليه اتساعا وفخامة وجعل مدرسة بجانبه وأوقف لها أوقافا تسمى باسم قايتباى وفى سنة (٩٨٠ﻫ) عمره السلطان (سليم الثانى) وفى سنة (١٢٣٣) عمره (السلطان محمود) وهو الذى أمر بترميم القبة ودهنها

باللون الاخضر سنة (١٢٥٥) ولذلك سميت بالقبة الخضراء

وفى سنة (١٢٧٠) أمر (السلطان عبد المجيد خان) بعمارته والزيادة فيه الى الشمال وتمت عمارته على ما هى عليه الآن وفيه من الوشى والخطوط الذهبية والنقوش الغريبه ما يدهش العقل

وأما النور الكهربائى فقد أدخل فى زمن السلطان المخلوع (عبد الحميد) فى (٢٥) من شعبان سنة (١٣٢٦) حين وصلت السكة الحديدية الى المدينه المنورة وقامت هناك الاهالى باحتفال جليل لا يوصف

وفى المسجد النبوى كثير من الثريات والقناديل من الذهب والفضة وكذلك المشاكى الذهبية مرصعة بالألماس والزبرجد والياقوت وكلها معلقة بالسلاسل من الفضة ومجموع مصابيح الروضة الشريفة مائة مصباح وستة وهناك حجر كبير من ألماس البرلانتى يحيط به تركيبة من الذهب المرصع وهذا الحجر فى حجم بيضة الحمام الصغيرة ويقدرون ثمنه فى ذاته بنحو ثمانمائه ألف جنيه مصرى والجنيه الواحد يساوى ٢٥ فرنك ويسمون هذا الحجر بالكوكب الدرى وهذا الحجر أهداه الى الحجرة المباركة السلطان ﴿ أحمد خان الاول ابن السلطان محمد خان ﴾ من آل عثمان فى أوائل القرن الحادى عشر ويوجد كثير من هذه الجواهر الثمينة ما لا يحصى كانت تلك النفائس تاتى هدية من الملوك والسلاطين فتقدر جملة الجواهر الموجودة بالحرم النبوى بمبلغ سبعة ملايين جنيها مصريا (والجنيه يساوى ٢٥ فرنك) وتجارتها لا تخرج عن تجارة مكة غيرانه فيها بساتين بكثرة وأصناف من النخل ما ينوف عن سبعين صنفا ولذلك كانت تجارتها فى البلح أكبر

وفى ضواحيها مزارات كثيرة منها مسجد قبا وهو أشهرها ويبعد عن المدينة بنحو خمس كيلومترات وهو أول مسجد بنى فى الاسلام ثم مسجد الراية ومسجد الفتح ومسجد القبلتين ومسجد السقيا ومسجد الغمامة ومسجد على ومسجد المائدة ومسجد الاحزاب وغير ذلك من المقامات المباركة

وقد وقفنا عليها كلها للزيارة يوم السبت (٣٠) ذى الحجة وقرأنا فيها ما تيسر من القرآن ودعونا فى جميعها بما يعود علينا وعلى كافة المسلمين من الفلاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة

وكنا فى الحرمين الشريفين نتراوح صباح مساء من مقام الى آخر ومن مزار الى غيره ولم يخطر لنا بالبال مكان محترم الا سعينا اليه لنتبرك به فكانت أيامنا فيهما عزيزة جدا فلا تساويها أيام أفراح ولا تعادلها أيام أعياد ولا تقاس بايام مواسم ولا تقدر بايام الدنيا فى العمر كله فى غيرها لان اللذة الحاصلة للنفس عندهما والانس الكامل بهما وركون القلب الى زمامهما واطمئنان جنود القلب بمشاهدتهما والانشراح الذى عم شعاعه سائر الآفاق بواسطتهما كل ذلك مفقود وليس بموجود فى غيرهما والنفس اذا غاب عنها محبوبها يعتريها من الكآبة والحزن ما يزيد فى ضعفها لفقدها اياه واذا وجدته عانقته وأبت أن تفارقه مادام فى حيزها ولهذا الباب مقامات تتجلى على القلوب تختلف باختلاف شدة الشوق والقوة فى الصبر ولهذا ترى كثيرا من الزوار حينما يدنو من الروضة الشريفة لا يملك نفسه فيطيش عقله من الدهشة اذ شدة شوقه وقلة ثباته يريانه انه فى عالم آخر فتسابق عبراته لسانه فمن الناس من يترجل ويثبت نفسه بقوة الجأش ليؤدى التحية الواجبة لخير الوجود ومنهم من يتلجلج لسانه ولا يقدر على النطق الا بعد حين لما اعتراه من الوجدان الفائق حتى تسكن جوارحه ويطمئن قلبه وتعود اليه روحه ويزول روعه وينكف عنه دمعه فيسلم حينئذ ثم يدعو ثم يصلى ثم يذكر الله ما شاء

وهكذا كانت لياليناً بالمدينة مثل أيامنا ونحن فى شغل زيارة أولئك الاخيار وتلاوة القرآن بالروضة المنيفة وقراءة دلائل الخيرات والتهجد ما استطعنا وصلاة النوافل وسماع الاحاديث النبوية من علمائها وفضلائها والجلوس مع أولئك المدنيين ذوى الاخلاق الحميدة والسجايا الفضيلة حتى ان الواحد منا يود ان لا تغرب شمس يومه واذا دخل الليل تمنى أن لا يأفل قمره ولا تذهب كواكبه ومن هذه الليالى الجميلة ليلة أحييناها تذكارا نحن معاشر

حجاج امزاب بدار واسعة لحضرة الفاضل الشيخ حمزة فصلينا شكراً لله تعالى جماعة مائة ركعة وتصدى للامامة حضرة الفقيه الشيخ الحاج يحيى فكانت ليلة مباركة من أعظم لياليالى الافراح وأبهج لياليالى السرور وختمناها بتلاوة جميع القرآن بعد ان فرقنا أجزاءه على رؤس الحجاج ثم بالدعاء والاستغفار وباطراف كلام من الوعظ يشفى الغليل ويرتوا اليه الحزين ويأنس به الغريب وهذه الليلة الفخيمة هى ليلة عاشوراء وفضلها على سائر لياليالى أشهر من أن يذكر وأوضح من ان يبين ولم نزل على هذه الاوصاف حتى صارت لنا سجية فعز علينا فراق المدينة وصعب علينا الخروج منها وأبت النفس ان تميل الى الرحيل ومكثنا نتمتعا بانوار الروضة الشريفه وتبركا بالاضرحة الطاهرة وغير ذلك من الفوائد الجليلة

ومما هو جدير بالذكر ان حضرة محبنا السيد الشيخ أحمد بن الشيخ حمزة عرض علينا التنزه فى بستان لهم قريب من المدينة بضواحيها فاجبناه الى هذا الاكرام الجليل وشكرناه على صنعه الجميل فذهبنا معه اجابة لدعائه ولما دخلنا البستان تلقانا أبوه الشيخ السيد حمزه ورحب بنا بألفاظ تاخذ بمجامع القلوب ولا غرابة فى ذلك لانه الرجل الوحيد فى الادب والدين وشهرته بشرف الاخلاق تغنى عن تعريفه فاجبناه بما يناسب مقامه السامى من الرفعة والدعاء بدوام العزة ثم تقدم بنا الى منزله الكائن وسط بستان أنيق فوجدناه محلا أعد لنا بالخصوص وهو فى غاية من البهاء حيث انه فرش باجمل أبسطة مختلفة الالوان ومتنوعة الاشكال تاخذ بالابصار وفيها من رقة الصنعة ودقة الزينة ما يدهش القلب فضلا عما فى ذلك المنزل من آلات الحضارة وضروب اللطافة

ويحيط بهذه الدار بستان تكاملت فيه أصناف الاشجار ومحتوى على ما تلتذ به النفس من جميع الثمار

وفرشت تلك الرياض أبسطة على سطح البستان مزركشة بنجوم الازهار ونصبت لواءها الاداء التحية بنغمات شجية عموم البلابل والاطيار

فتعاطر المكان بانواع الرياحين وتخاصم فى البهاء الورد والياسمين ويوجد أمام السراية حوض متسع مملوء بالماء وتسيل جوانبه على السواقى فامتزجت المناظر الطبيعية من خضرة الاشجار ورائحة الازهار ونغمات الاطيار وحلاوة الثمار وصفاء الماء الجارى فكانت مثالا فى الجمال وبديعا فى الكمال وبلغ عدد من حضر هذه الوليمة نحو خمسة عشر من الحجاج وثمانية من أصدقاء وأقارب حضرة الشيخ حمزة

ثم بعد برهة من الزمن دارت علينا كؤس القهاوى والشاى فشربنا ماطاب لنا وبعده بقليل قدموا لنا الغذاء مركبا من أطعمة مختلفة الالوان ومتنوعة الاشكال فكان من بينها شاتان طريتان حنيذتان ولحم آخر محشو بالرز والكل قد استوى فى طيب السمن ثم عاقب الاكل ما يخفف قوة الدسومة من اللوز والفستق ونحوهما فأكلنا ماطاب لنا من لذيذ هذه الاطعمة الجميلة وشربنا كذلك ما لذ لنا من المشروبات العجيبة ثم تناولت شيأ من ضروب الحلويات الفخيمة وبعدما انتهينا من الاكل شرع القوم فى المسامرة والمذاكرة فى المسائل الدينية والاحوال الدنيوية والتفكه بما يطرب القلب وينعش الصدر وغير ذلك من المحادثة والنوادر الغريبة ولم يزل جمعنا على هذه الاوصاف حتى أقبل المساء فاستأذنا حينئذ فى الانصراف وكان قد عز على رب المنزل مفارقتنا كما انه شق علينا مغادرتنا تلك السراية ثم دعونا لفضيلة الشيخ حمزة بما هو أهله من خيرى الدنيا والآخرة وكذلك لابنه الشيخ السيد أحمد وشكرناهم على صنعهم هذا وأثنينا عليهم ثناء حسنا ثم انصرفنا راجعين الى مكان اقامتنا منشرحى الصدور والله تعالى يديم لنا وجود أنجالهم وان يكثر من الناس أمثالهم

ثم فى يوم السبت أردنا أيضا زيارة مسجد قباء وصاحبنا السيد الشيخ أحمد الموصى اليه فلما وصلنا صلينا تحية المسجد وقرأنا ما تيسر من القرآن ودعونا بما يحب الله ورسوله ولم نزل على هذه الحالة حتى دخل علينا اعرابى من سكان البادية فطلب منا حسب عوائدهم شيئا من الصدقة فناوله السيد الشيخ أحمد

ما كتب له ولم يرض الاعرابى الانصراف وألح أيضا فى الطلب وأشغلنا عن التبرك بهذا المقام فدافعه الشيخ أحمد قليلا فوقع ذلك الاعرابى على الارض مغشيا عليه فتماوت فاظهر من نفسه انه ميت بسبب دفع السيد أحمد له والحال انه لم يصبه شىء أبدا مما يضره فى بدنه انما تلك الفعلة الخبيثة مكر وخداع لاكل أموال الناس ظلما وعدوانا وطريقة من طرق النهب والنصب فى حرمات الله مع جمع من الاعراب الذين لا يأتون لهذه الامكنة الا بعد التجرد من دواعى النفس والهوى ولذلك عميت بصائرهم ولا يعلمون حدود ما أنزل الله

فلما ألقى نفسه متماوتا اجتمعت عليه أصحابه وكانوا شركاءه فى فعلته التى فعلها وأظهروا أنفسهم انهم أقارب الميت وطلبوا منا دية الخطأ والا أخذوا بالقصاص منا فاجتمعت كلمتهم على ذلك وهم جمع كبير وعلت أصواتهم وارتفعت شوكتهم وتجمهروا وتحزبوا وتحالفوا وتصارخوا وحصرونا فى المسجد وصمموا على أخذ الدية فى مقابلة قريبهم وان لم نمتثل أخذوا القصاص ولما تحققنا منهم هذه الغوغاء وكان من معنا من سكان المدينة عارفين بطبائع هؤلاء الاشرار فنادوا لهم أحدهم شيئا من النقود بعد كلام طويل وأفهمهم أن مثل هذه الفعال ليست من العقلاء وان الاجدر بهم ان يجتنبوها بقية عمرهم وغير ذلك من الحديث الجارى بينهم فاقتنعوا بتلك النقود فانصرفوا فحمدنا الله تعالى حيث نجانا من الوقوع فى حبالة هؤلاء اللصوص وكان قد خرج معنا أحد معارفنا حضرة المحب الشيخ بن ابراهيم الطيارى ولهم سراية ببستان بضواحى المدينة فعرض علينا المرور على منزله فاجبنا دعوته لكمال مودة هذا المفضال حيث انه قاسى العناء الشديد مع الاشرار من الاعراب وأعقب ذلك بوليمة أعدها لزيارتنا فتوجهنا معه الى منزله وثلة الاشرار محلقون يتباحثون بسرعة فكانهم غير راضين بما وصل لهم فاكفهر سحاب الغضب فى وجوههم وتطايرت شرارة الحقد من قلوبهم وجاؤا بأجمعهم يقفون اثرنا ويصيحون وراءنا فاظهروا أسفا زائدا على مصابهم ورجعوا عما وقع من الصلح بيننا وناقضوا العهد فطلبوا منا أحد الامرين اما دية القتيل واما

القصاص والنفس بالنفس وتنابحوا وراءنا حتى تشرفنا بدخول سراية عزيزنا السيد الشيخ بن ابراهيم فالفيناها فى غاية من الزينة والرونقة وفى الكمال من اللطافة والبهاء وأحاطت به أشجار البستان ملتفة حولها مع مافيها من أصناف الرياحين فكانت الروائح الزكية العنبرية تتزاحم فى نوافذ ذلك المنزل تلك العطرية الآتية من أزهار شتى وريا حين جمة وأثمار متكاثرة وفيها من الخضرة وطراوة الفواكه ونسيم الاشجار المار على المياه ما يأنس به العليل ويرتوالية الغريب ويأخذ بمجامع القلوب ثم بعد ذلك قدمت لنا المشروبات والشاى والقهوه ولذيذ الاكل فاكلنا ماتيسر وشربنا ماطاب لنا وبينما نحن كذلك اذ فوجئنا بالعصابة المشؤمة من الاعراب المتوحشة فكانى بهم خشب مسندة لم تبلغهم دعوة ولا سمعوا برسول ولا أتتهم شريعة ولا عرفوا قانونا سماويا كان أو وضعيا فكانهم ثلة من البربر خلقوا فى شاهق جبل بعيد عن العمران لم يخطر ببالهم شىء مما ذكر وطبعت نفوسهم على الرذائل وتمكنت منهم الهمجية واستأصلت فيهم الوحشية فهم فى الحقيقة بقر فى صورة البشر

فعرضوا علينا طلبهم المحصور بين أمرين امادية القتيل واما الاخذ بالقصاص وهو النفس بالنفس وغرضهم بذلك يرهبوننا ويوقعوننا فى المخافة من بأسهم حتى نصالحهم بمبلغ كبير من النقود يرضى وطأتهم الشديدة وان لم نمتثل كان سببا للنهب والسلب والقتل ومع ذلك فقد أوقفهم مكانهم السيد الشيخ بن ابراهيم صاحب المنزل بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالقوة لان عددهم كثير جدا وهم رافعوا السلاح ولم يزل يلاطف معهم الكلام ويلين معهم الجانب ويخادعهم بحلاوة النطق والسياسة المموهة بالوعود لمطلبهم حتى انتهت عند حدها شوكتهم وتوقفت بملاطفة الحكمة والسياسة لجاجتهم وخمدت باساليب اللين جمرتهم وكان الخبر فى اثناء هذه المحاورة قد بلغ المدينة الى والدى صاحب المنزل وشاع فى شوارع المدينة هيجان الاعراب علينا وهم يعلمون مبلغ ثورتهم فى الفتن التى يقيمونها ويدرون أحوالهم تفصيلا فى

الفظاعة والخساسة فاسرعت الحكومة بخيلها ورجلها وكذا رجال والد صاحبنا ويتبع الجميع جم غفير من أهالى المدينه فقدموا نحونا مسرعين لما يعتقدونه من سماجة عوائد تلك الحمر المستنفرة ولما اشتهر بهم أن قتل النفس المحرمة فى جميع الاديان عندهم كيقتل بعوضة بل لا قيمة لها فى نظرهم فاحلوا رقاب كل من وقع تحت أياديهم اذا ظهر منه امتناع لمطالبهم التى تتركهم فى القفر حفاة عراة مسلوبين فبينما هم ينتظرون منا ان نصالحهم بالمال الكثير والا أنفذوا مرادهم فينا الا والحكومة الآتية من المدينة أحاطت بهم من كل جهة وضيقت عليهم السبيل فلم يجدوا طريقا للفرار بل وقعوا كلهم فى قبضة رجال البوليس وألقت عليهم الحكومة القبض ولم يمنع منهم واحدا لا نادرا ثم زجتهم فى السجن وتركنا التحقيق جاريا فى أمرهم ورجال التحقيق مهتمون بهذه الحادثة التى لا ينبغى وقوعها من رعاع الناس فى أطراف الارض وكيف بوقوعها من مثل هؤلاء فى أشرف بقعة ولله فى خلقه شؤون وأما نحن فبعد هذه الحادثة المزعجة رجعنا الى محل اقامتنا بالمدينة بعد أداء الشكر الجزيل والرجاء من كرم صاحبنا ان لا يتاثر بما صادفنا من الملمات الشنيعة

فلما أتممنا الزيارة بسائر الامكنة المباركة بالمدينة وضواحيها مع المواظبة التامة على تحية المسجد النبوى وقراءة القرآن فيه ودلائل الخيرات والدعوات الصالحات وسماع الوعظ كالحديث الشريف وآى التفسير صعب علينا مغادرة المدينة عند قرب الرحيل وعلمنا ان كل حبيب وان عز لا مناص من ان يعقبه فراق وتلك سنة الله فى خلقه (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وكنا قد استغرقنا بالمدينة المنورة اثنين وأربعين يوما فكانى بتلك الايام أيام سرور وليالى أفراح وهى لفرط جمالها لا تعد نقصا من أيام العمر لما حوته من المزايا النفيسة تكون لنا عند ربنا ان شاء الله ذخيرة نجدها يوم لا ينفع مال ولا بنون

ففى اليوم الثامن من شهر صفر الخير سنة (١٣٣٢) عقدنا مجلسنا للنظر فى السفر فاستقر رأى الجميع على ان نغادر المدينة فى صبيحة اليوم وان يكون

سفرنا على طريق السكة الحديدية الى الاقطار الشاميه فلما اصبح النهار ودعنا الروضة الشريفة وقاطبة الاصحاب بعدان جهزنا لوازم السفر ثم أخذنا نذاكر السفر من الدرجة الثانية باجرة النفر الواحد مبلغها اثنان وتسعون فرنك والمسافة بين المدينه ودمشق الشام تبلغ (١٣٠٢) كيلومترومنها الى حيفا (١٣٣٣) كيلو تقطعها القطارات فى أربعة ايام تقريبا ثم ركبنا فى الوابور وقام بنا مسافرا نحو الشام وهو يمر فى وسط بساتين المدينة المنورة بضواحيها كالسهم لشدة سرعته ومن النباهة ان جميع متوظفى القطارات الحجازية من ناظر محطه ومفتش وسائق وملاحظ وغيرذلك كلهم مسلمون وان فى اطراف الخط الحجازى مثل الشام وماقرب منه فيوجد فيه المتوظفون من الاجانب غير العثمانيين ولم يزل القطار مسرعا فى قطع الفيافى حتى وصل بنا فى الساعة التاسعة من صباح يوم الاربعاء الى محطة (تبوك) وهو المحل الذى اتخذته الحكومة العثمانيه للحجر الصحى من جهة البرفنزلت جميع الركاب مع اختلاف طبقاتهم لاجراء تفتيش الصحة وتمثلنا أمام حكيم المصلحة كصفوف العساكر ثم خرج الحكيم ومر على كل الصفوف وهو يرمق ببصره فى أوجه الناس ويتوسم بتفرس منه من يوجد فيه اى شىء يخل بالصحة العمومية فبعد أن انتهى من اجراء هذا الكشف أمر بادخالنا الى محل آخر أعد للكشف فيه على وجه مخصوص بحيث لا يطلع أحد على آخرين ما يتجرد الحاج من جميع ملابسه الا ثوب واحد ساتر للعورة

فلما استقر نزول الركاب كلهم بمحطة تبوك بمقتضى القانون الصحى أمر حكيم الصحة بادخال الحجاج صفوفا بداخل محل أعد لمقابلتهم لاجراء الكشف الطبى عليهم ثم خرج ومعه حكماء آخرون فمروا علينا ونحن على ما تقدم مجردون من الملابس الا ماستر العورة وأخذوا تلك الثياب بسرعة لتبخيرها باجزاء مخصوصة يعلمها الاطباء . وكان التبخير بمساعدة أدوات بخارية واما الناس فيخرجون من تلك القاعة الى ديوان آخر اما الابناء الاصاغر فمعافون من الرسوم واما الكبار فيدفع كل واحد عن نفسه

مجيديا (أربعة فرنكات) وهذا الديوان والقاعة الاولى فى غاية من النظافة والنقاء والبهاء يأخذ منظره بمجامع القلوب شكلا ولطافة لمزيد الايقان ومتانة البنيان فبينما نحن مستريحون فى هذا المكان الا والبابور قد أقبل وأنزل الناس بضائعهم لاجراء الكشف الصحى

وهذه المحطة هواؤها جيد وطقسها معتدل ويوجد فيها من المأكولات والمشروبات ما يناسب حال البادية والحضر حيث انها جامعة بين المارة من المسافرين وبين سكان البادية والاثمان فيها متعاودة بل مائلة الى الرفق بحالة الناس وأظن أنها فى غير أوان الحج تكون الاثمان فيها بسيطة زهيدة وفى هذه المحطة مع صغرها جميل الآثار من ذلك مسجد أقيم على المكان الذى صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة وعلى باب هذا المسجد بئر من آثار السيد الرسول نبع ماؤها من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم فى وقت كان هو ومن معه فى شدة الحاجة الى الماء وماء هذا البئر عذب حلو جدا وقد وضع عليه أخيرا (ناظم باشا) مدير السكة الحديدية الحجازية طلمبة تحفظ ماءها من عبث العابثين فاستقينا من هذه العين المباركة وشربنا حتى روينا للتبرك بهذا الاثر النبوى

ثم فى يوم السبت ركبنا القطار وغادرنا تبوك متوجهين الى الشام وكان الوقت الساعة التاسعة صباحا واستمر مسرعا فى سيره حتى صارت الساعة السابعة مساء اليوم وهى ليلة الاحد ١٤ من صفر الخير فوقف بنا القطار بمحطة يقال لها (ذات الحج) ويقرب من هذه المحطة قرية (امعا) والمسافة بينهما نحو ٢٠٠٠ متر (كيلو مترين) ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها فى جوف الجبل وسكانها نحو ألف نسمة والغالب فيهم من عمال الطريق الحديدى وضواحيها صالحة للزراعة لوجود المياه العذبة بكثرة هناك ومع ذلك أهملت أراضيها من الفلاحة بالكلية لعدم الامن ومجىء الاعراب من تلك الجهات للنهب والسلب وفى هذه القرية الظريفة أسواق جيدة ويوجد فيها أصناف المأكولات والمشروبات من كل صنف يوجد

فى الحضر وكذلك القهاوى للاستراحة والغرف للمبيت وأهلها يظهر على سمتهم الفضل وتلوح من جبينهم الهمة والكرم

وكان موقف القطار لا يزيد على نصف ساعة ولما قرب موعده رجعنا الى محلاتنا ثم سافر القطار مجدا فى سيره بقية ليلة الاحد الى الساعة الثامنة صباح يوم الاحد ١٤ من صفر ووصل الى محطة (الدرعا) وكان الخط الحديدى فى هذه الجهات كثير المنحنيات وهذه المحطة هى مجمع القطارات الحديدية بين المدينة المنورة ودمشق الشام وحيفا وأراضيها زراعية وفيها مياه عذبة والقرية بعيدة عن المحطة بنحو كيلومتر وبعد برهة من الزمن قام البابور ينادى باعلى صوته دمشق الشام

ثم فى الساعة الخامسة مساء يومنا تشرف بالوصول الى مدينة دمشق وكنا نخترق اراضى كرياض الجنة فى الخضرة والمياه الجارية والاشجار المغروسة والجبال الشاهقة ونحو ذلك من المناظر الطبيعية والمنتزهات الجميلة وبعد النزول قصدنا أحسن لوكاندة لنتخذها مقر الاستراحتنا مدة سياحتنا بهذه المدينة وتعرف بلوكاندة دار السرور وسميت بذلك لان المسافر اذا نزل بها يجد من ظرافة هذه الغرفة ما يسره وهى متسعة الاطراف وكثيرة الطبقات يحيط بها سور مزخرف بداخله صور الحيوان والاشجار من جميع الاشكال اللطيفة وهذا النقش فى النهاية من الاتقان وفى الكمال من البهجة حتى ان الرائى الى هذه الصور ليتوهم انها حقيقة لا صور خيالية فهى تجذب بحلاوة منظرها الابصار وتقود بلطافة ظرافتها الشخوص نحوها آناء الليل وأطراف النهار وأمامها أشجار عالية وأثمار يانعة مثل الليمون والبرتقال وغير ذلك من الخضراوات التى تؤدى نسيما غذاء للنفس لسكان تلك اللوكاندة وفيها أحواض تتدفق مياها بغزارة من جوانبها وتنحدر على السواقى برونقة غريبة وتتخلل تلك السواقى فى قفا اللوكاندة والمياه عذبة سائلة للشرب حلوة للذوق وترى اطراف الاشجار وأغصانها معلق بها أقفاص بداخلها طيور مختلفة الاصوات وهى دائما تغرد بنغماتها الشجية وأصواتها الطبيعية

فليست الاوتار تحاكيها ولا الدفوف تماثلها فكانها تاخذ أجرا على رئيس الغرفة أو اتخذت على نفسها عهدا بالقيام على هذه الوظيفة السامية

ويوجد داخل اللوكاندة أبسطة ثمينة مفروشة بها قاعات الغرفة وهى من صناعة العجم ومزركشة بزخارف وألوان يعجز الوصف عن الاحاطة بها وفيها أيضا بيت الصلاة موضوع فيه محراب للدلالة على القبلة وتصلى فيه الاوقات والمكان نظيف جدا ومروق تميل اليه النفس ويرتاح له الخاطر وينشرح له الصدر وهو دائما مزدحم بالناس

وبقينا فيه مدة زيارتنا لهذه المدينه ولقد أحسن صاحبه حيث قال فيه

دار السرور بهيجة * تحكى غرف الجنان
الماء فيها دافق * وفيها كذلك النور زان
أيضا وفرش قد حلت * من نام فيها لا يهان
بنظافة ولطافة * مع حسن اتقان المكان
أنعم بها وباهلها * فى كل وقت وزمان
ماعيبها الا غدت * مقصورة الحور الحسان

وفى صباح يوم الاثنين (١٥) صفر خرجنا لزيارة مسجد الامويين وهو آية من آيات الصحابة ودولة بنى أمية وهو كالجامع الازهر فى الاتساع فيه مقصورة عظيمة بالجانب الشرقى بها مسجد سيدنا (يحيى بن زكريا) عليه السلام ويقال ان فيها رأسه الكريمه

وفى الجانب الشرقى من الجامع الاموى مشهد رأس الامام (الحسين ابن على بن أبى طالب) رضى الله عنهم وعليه بناء عظيم عال وفيه المنارة الغربية التى كان الامام الغزالى يتعبد فيها وفى الجانب الشرقى بركة ماء متسعة يخرج منها الماء بقوة زائدة على العادة

وفى امام الباب الغربى حوانيت لباعة الكتب والتجليد

ثم قصدنا أيضا زيارة مشاهد الصحابة والعلماء والصالحين فزرنا أولا ضريح السلطان (صلاح الدين الايوبى) رضى الله عنه وثانيا قبر (خولة

بنت الازور الصحابية) و (شرحبيل بن حسنة) كاتب الوحى الصحابى وقبر (ضرار بن الازور الاسدى) شهد فتح دمشق ومات فيها ودفن هناك وهو صحابى رضى الله عنه

وشاهدت ضريح (أبى الدحداح الصحابى) وقبر (عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق) رضى الله عنهم وكذلك قبر سيدنا (بلال الحبشى مؤذن الاسلام) ومشهد (اوس بن أوس الثقفى * وأبى الدرداء) وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم

ومن المزارات الجليلة قبر (موسى عليه السلام كليم الله) بدمشق وقبره وان اختلف فى مكانه من قديم لكن المشهور انه بالكثيب الاحمر بقرب قرية يقال لها مسجد القدم

ثم عزمنا على المسير الى زيارة مشاهد الانبياء والصالحين بجبل يقال له (قاسيون) وهو مرتفع عن البلاد وأجرنا الحمر وركبنا باجرة نصف مجيدى عن النفر الواحد فصعدنا ذلك الجبل وزرنا ضريح (نبى الله ذى الكفل) صلى الله عليه وسلم وهو فى قبة خاصة به وزرنا (قبر الامام ابن مالك) النحوى الاندلسى ومعه جملة من العلماء الكبار وشهدنا (مغارة الدم) فى أصل الجبل فوق ذى الكفل عليه السلام ويقال على لسان العامة انه مكان قتل قابيل لاخيه هابيل والوارد فى التفسير ان القتل بارض الهند وهرب القاتل لشدة الندم ونزل بضواحى الشام من القرب بجزيرة العرب وكلا الروايتين محتمل ومغارة الدم مصلى ابراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب عليهم السلام وفى أعلا الجبل كهف منسوب لآدم عليه السلام الا أن العامة يقولون انه مكان أصحاب الكهف المذكورين فى القرآن وعلى كل حال ففضل هذين المغارين مشهور تتبرك به الناس من قديم الزمان وكذلك زرنا مقام (الامير الحاج عبد القادر الجزائرلى) وبقية قبور الصالحين وقرأنا عند كل ضريح الفاتحة مع الدعوة الصالحة وتلاوة ما تيسر من القرآن تبركا بهؤلاء العظماء الكرام

ويوجد بهذا الجبل مكان مرتفع عليه حصى كثير كل من يمر عليه من الناس يرميه بحجارة والناس تقول انه قبر (يزيد بن معاوية) وقيل (قبر أبى لهب) والاول أقرب

ومساكن دمشق متينة البنيان محكمة فى الصنعة والاتقان ولهم عناية كبرى بالنظافة خصوصا داخل منازلهم وكذا ثيابهم وأبدانهم ويشق شوارع المدينة نحو خمسين ساقية من الماء وهذه السواقى تمر امام غالب كل منازل السكان والناس تاخذ منها فرو عالدا خل دورهم وفيها منتزهات جميلة ومغروسة باشجار يانعة وضواحيها من أجمل مناظر الدنيا لما فيها من البساتين الكثيرة المختلفة والمزارع المغطاة بتلك السهول والحقول المتنوعة فلله ما ألطف تلك البقاع وما أظرف تلك الاصقاع فهى ذات جبال شامخة وأودية زاهية وسهول راقية وبحيرات سامية وبساتين يانعة والحرارة والبرودة عندهم كعندنا فى الجزائر فتنزل عندهم الثلوج والامطار وتكثر الرياح سواء بسواء

واما أخلاق أهلها وطباعهم وعوائدهم وأوضاعهم فهى من أجمل ما يكون لما فيهم من حسن السيرة ولين الجانب مع الاقارب والاجانب يلاقون الشخص بطلاقة الوجه والبشاشة الا انهم يبالغون فى التحية فوق اللزوم ويزيدون فى كثرة التمنى والانحناء ويكثرون من لفظة داعيكم أو عبدكم فيلزم المخاطب أن يقول فى كل مرة (أستغفر الله) ويقولون للتعظيم جئنا لتقبيل أذيالكم وانتم أنامالكم وهكذا من الالفاظ الفخيمة

ومن محاسنهم التودد الى الغرباء وزيارة المسافرين وملاطفتهم قولا وفعلا ولكنهم يحتالون على اختبار أهل العلم وامتحانهم بحيلة خفية

وأما أحوال النساء المسلمات فانهن فى غاية السكينة والاحتشام فيبرزن وعلى وجوههن المناديل وعلى رؤسهن الازار الطويل ويخرجن أحيانا الى المنتزهات ونساء النصارى فى الشام لا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى كما فى مثل بيروت فانهن كنساء الافرنج وان كن فى الاصل من قرى جبل لبنان ونحوه الا أنهن قلدن الاوربا ويات وزدن بكل ما فى الامكان والغالب

على أهل دمشق الميل الى الملاذ من المأكل والمشرب والملبس ويحبون التفاخر ولهم أشد اعتناء بهذه الامور من بقية الشوام

وبعد ان فرغنا من زيارة هذه المدينة اردنا السفر الى مدينة بيروت ففي يوم الاثنين ٢١ من صفر أخذنا تذاكر الركوب بالسكة الحديد وأجرة الواحد مجيديان (ثمان فرنكات) فركبنا من دمشق قاصدين جهة بيروت وكانت الساعة السادسة صباحا ولم يزل القطار يقطع المفاوز بسرعته الشديدة حتى دقت الساعة الرابعة وخمسة وثلاثين دقيقة مساء يومنا فوصل القطار الى بيروت فنزلنا ثم قصدنا اللوكاندة وزال عنا تعب الطريق وبتنا تلك الليلة مسرورين وخرجنا للتنزه في شوارع المدينة وهي تتلالا مصابيحها الكهربائية كالاقمار في ليلة الدجى وكانت غاصة بالرجال من الاهالي والاغراب من السواحين والحجاج والناس في ذلك أشكال في اختلاف ملابسهم ولغاتهم

(مطلب في بيان بعض أوصاف بيروت وعوائدهم)

مدينة بيروت متينة وهي أعظم المدن السورية (الشامية) وهي مرساة على ساحل البحر الابيض المتوسط وتراها عالية المباني كاملة المعاني عمارتها من داخل السور غالبها من قديم الدهور واما البنيان الجديد في خارجها فهو على طرز جديد واتقان التشييد موضوع على أعلاه القراميد وفي أطواقه الشبابيك من الحديد وما على نضارته من مزيد وسبب ذلك كما دل عليه التامل والنظر أن خارج البلد قديما كان مملوءا بالبساتين والشجر فلما أرادوا الخروج فيه بالعمارة عمد كل واحد الى محل من بستانه واقتلع أشجاره وعمر في وسطه فصارت في غاية النضارة لكونها محفوفة بالاشجار المحدقة اليها بعيون الازهار دانية القطوف والثمار وكل المناظر البديعة كانها حاصلة بالطبيعة لا من صنع صانع ولا من وضع واضع لما علمت من أصل تلك المواضع وزد عليها كونها مشرفة على البحر مطلة على البر معتدلة البرد والحر عذبة الماء صافية

الهواء كثيرة الرخاء وبناء بيروت كله بالحجر الصلب الجاف ومن جملة اعتنائهم بالمباني الرفيعة انهم يحضرون لها الاعمدة والبلاط من الرخام ويضعونها في أرضها وحيطانها بغاية الاتقان والاحكام ويتغالون في النقش والفرش من ذهب وحديد ويتغالون فيما يجلسون عليه من كراسي وأسرة

ولاهالي بيروت خاصة والشوام عامة مزيد النشاط وحب العمل والدؤب على المعاش ويكرهون الكسل فجميع أهل البلاد يسعون باتخاذ الوسائل في المعيشة والاستعداد فصاحب صنعة مجد في صناعته وذو حرفة ساع مع ضيعته ومن يشتغل بالحرث والزراعة تراه لا يترك صغيرهم ولا كبيرهم طول السنة نبشا في الارض لاستخراج خيراتها واجتناء ثمراتها وشم أغصانها ورؤية أزهارها

وساعدهم الجد الموفور بكون أرضها لا تكتم شيئا من أنواع الغرس والبذور

(عادة البيروتيين في الافراح)

ينشرون أوراق الدعوة للعلماء والاصحاب ليلة العقد فيحضر كل من دعي في محل متسع مفروش بانواع الفرش الجميلة ويقرؤن المولد النبوي بعد قراءة العشر من القرآن وينشدون الاشعار النبوية والادوار المولدية ثم بعد الفراغ يقدم القراطيس من اللوز الملبس بالسكر وتدور عليهم كؤس المشروبات ويحضر بعد ذلك ولي الزوج والزوجة والقاضي والمفتي وجمع من العلماء ويسمون المهر ثم يعقدون عقد النكاح ويقرؤن الفاتحة بتمام الخير والصلاح ثم ينصرفون

(دخول العروس على عرسه)

ينشرون أوراق الدعوة على النمط المتقدم يدعون فيها الوجوه والاعيان والاصحاب والاخوان أكثر من الدعوة الاولى ويجتمعون في بيت واسع بعد الغروب ويلبسون العروس بدلته الجديدة المعدة للفرح ويكون الذي يلبسه اياها من أهل الخير والصلاح كالعلماء ويدعون له بالبنين وهناء العيش ثم

يؤذنون و يصلون جماعة صلاة العشاء و بعد ذلك يشتغل كل فريق بحسب هواه منهم بالغناء و منهم بالدف و منهم بالاوتار و منهم بسماع المولد ثم تدور عليهم المشروبات والحلويات المختلفة الطعم واللذة و يوزعون شموعا كل واحد يحمل شمعته صغيرا كان أو كبيرا ثم يخرجون بالعروس للزفاف حاملين للشموع فى الشوارع والازقة و يطلقون السهوم النهارية فى جو السماء ملونة بالاحمر والاخضر والاصفر والازرق و يسيرون بهذه الحالة والنساء مطلة عليهم من الاسطحة والشبابيك الى أن يصلوا الى بيت العروس فيحملونها كهذه الحالة الى بيت العريس وهذه العادة مستحسنة

وملابسهم منهم قسم يلبس الطربوش والبدلة الافرنجية و يحلق ذقنه و يبقى شعر رأسه وقسم يلبس القفطان وهو اللباس الاصلى عندهم يقرب من ملابس المصريين وقسم يلبس البدلة العثمانية

والنساء منهن من يلبس لباسهن الاصلى مستورة الاطراف ولا يظهر شىء أصلا ومنهن من تتشكل بلباس الاوربا ويات وهن النصرانيات الشاميات والقسم الآخر من النصرانيات يلبسن لباسهن الاصلى غير أنهن يخرجن مكشوفات الوجوه من غير مبالاة

والمياه لبيروت تاتى لها من خارج بمحل يقال له (صبية) وهو نهر قوى فجعلت له السواقى وأجريت الى داخل البلد وتحمل منه العائلات فرادى الى منازلها وهذا النهر قوى جدا حيث انه يسقى بساتين ضواحى المدينة زيادة عن حاجة البلد

ولاهل الشام قدم راسخ فى العلوم العربية وشيدوا لها مدارس فاقت وذاعت وانتفعت منها الطلاب وتخرجت الفحول من العلماء خصوصا علوم الادب وضروب الخطابة وجودة الفصاحة و بلاغة الشعر و رقة النثر وميلهم الطبيعى الى الفنون الجميلة والعلوم العصرية فتدبروا وفاقوا أقرانهم ولهم فى ذلك أفراد من الادباء مشهورون فى الشرق والغالب فيهم ميال الى التحرير والكتابة منهم من يحترف بالجرائد ومنهم من يصدر المجلات

الشهرية والاسبوعية وحازوا قصبات السبق فى الادب واستخرجوا جواهر الكتب ونشروا فرائد المجلدات الضخمة وتسابقوا فى سوق عكاظ وارتحلت اليهم الانظار وشدت اليهم الرحال فلهم على جميع المسلمين فى مشرق الارض ومغربها مزية عظيمة يحمدون عليها وهى احياء اللغة العربية و رفع مبانيها وتشييد منارها وهم فى هذه الحسنة نغبطهم ونتمنى دوام طريقهم لهذا حتى يعم الآفاق

و بعد أن انتهينا من الفرجة على هذه المدينة الحسناء وقد مضى علينا خمسة أيام فيها

ففى الساعة العاشرة صباح يوم الاحد ٢٨ من صفر أخذنا أوراق السفر بطريق البحر الى مدينة يافا وأجرنا بالسفينة البخارية الخديوية و ركبنا من ميناء بيروت متوجهين بعناية الله وحفظه الى زيارة بيت المقدس بعد المرور على يافا وكانت أجرة النفر الواحد مجيديا ونصفا (٦ فرنكات) وسارت السفينة تمخر أمواج البحر المتلاطمة ولم تزل بقدرة الله جارية الى الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين فالقت مراسيها بعيدا عن الشاطئ لان البحر فى ميناء هذه البلدة مشهور بالاضطراب والامواج وشدة الاختباط والهياج فنزلنا فى زورق أعدت لوصول الركاب الى البلد فذهبت بنا بحارة الزورق وهم فى عناء كبير من تفاقم البحر وكنا فى وسط الزورق كريشة تعبث بها الرياح والامواج ولكن قد أدركتنا فيها الالطاف الخفية فوصلنا البلد بغاية الامنية بعد تعب شديد وأقمنا بمدينة يافا من وقت النزول الى الساعة واحدة وثلث بعد الزوال ومدينة يافا على أوصاف ما ذكر فى دمشق و بيروت وهى لا تقل عنهن فى شىء من حيث البساتين والزراعة ودقة البنيان ومتانة الصناعة والقصور متماثلة والعوائد متشابهة غير أن العلم فيها ليس كبيروت بل أقل منها بمراتب وليس فيها ما ينفرد بالذكر

وفى الساعة المذكورة قصدنا محطة السكة الحديدية لقطع تذاكر السفر الى القدس الشريف فاجرنا عن النفر بمجيدى واحد (أربعة فرنكات)

وقام القطار مستمرا على سرعة غريبة تخترق جبالا شاهقة وأودية واسعة ووهادا طبيعية حتى دقت الساعة الخامسة مساء فوصل بنا الى (القدس الشريف) فنزلنا وكان فى انتظارنا حضرة الفاضل المحترم الشيخ شحاذه الانصارى حيث بلغه تلغراف من طرف الشيخ احمد العيتانى فتشرفنا بالذهاب الى محل أعدلنا وكان لطيفا بديعاً حسن المنظر يرتاح فيه البال وتسكن اليه النفس فبقينا فى هناء وسرور وفى غد يوم الثلاثاء أردنا الاحتمام فتوجهنا لازالة شعث الوسخ من السفر بحمامات تلك البلاد وبعد الاغتسال وتجديد روح الحياة شرعنا فى الزيارة فتوجهنا الى الحرم الشريف المقدس « المسجد الاقصى » الانفس فالهينا به راحة الروح وقرة العين وطيب النفس (ومقام سيدنا داود عليه السلام ومسجد الاقصى محاسنه لاتحصى) وهو فى مقابلة قبة الصخرة من الجانب القبلى وهو قبلة أهل الشام وتحته المسجد القديم ينزل اليه بدرج كثير

وهو مسجد كبير وفيه من الاعمدة العجيبة النزر اليسير بخلاف المسجد الفوقانى فان أعمدته من الرخام الملون ورؤسها ملطخة بالذهب الاحمر الوهاج فى غاية الرونق والابتهاج مكتوب على محرابه بالخط الكوفى « سبحان الذى أسرى الآية » ومنبره أعجوبة من أعاجيب الدهر وخطيبه لا يكون الا من عائلة مشهورة عندهم يقال لهم (بيت ابن جماعة) ولهم موسم مخصوص يذكر فيه حالة الاسراء والمعراج ويقرأ فى الصلاة فى هذا الموسم سورة الاسراء فيحصل للمصلين تاثير عظيم وأما قبة الصخرة فهى شمال المسجد وامام المسجد الاقصى رحبة واسعة الاطراف وفى مركزها بركة وحوض من الماء وغرس جهة الشمال شجرة الزيتون وهناك احدى الشجرات قديمة جدا تعتقد العامة انها من عهد بناء المسجد الاقصى وهو اعتقاد بعيد وبعد هذه الرحبة المتسعة يوجد السلالم والدرج الصاعدة الى الصخرة تبلغ نحو عشرين سلما

فحينما تصعد فوق هذه الدرج تلقى رحبة أخرى واسعة أقصر من الاولى مفروشة ببلاطات واسعة وعليها محاريب ثم تجد قبة الصخرة هائلة

مموهة بالذهب وعليها نقوش ذهبية وقطع الصينى الملون بالاخضر والازرق والاحمر فى النهاية من البهجة والنضارة

ويوجد هناك أيضاً (مهد سيدنا المسيح) فى محل منخفض فى شمالى المسجد الاقصى وكذلك (باب التوبة وباب الرحمة) وهما الآن لطول الزمان أشرفا على الانهدام وهناك محل كرسى سيدنا سليمان عليه السلام

وأما ذات الصخرة فهى الآن مرتكزة على بناء حولها من الجوانب الاربعة وتحتها خلاء ومحراب يقف الزائرون فيه ويصلون ويدعون وقد صلينا ودعونا والحمد لله فنسئل الله تعالى القبول ونيل المأمول

وهذه الصخرة قطعة حجر واحد طولها اثنا عشر ذراعا فى عرض مثل ذلك وسمكها نحو ثلاثة أذرع وفيها القدم الشريف وآثار أخر يقال انها محل يد جبريل والعلم عند الله تعالى وفى أسواره منارات كبيرة وأبواب متعددة وبداخله مدارس وأروقة وزوايا وفى وسطه مياه كثيرة فى أحواض معدة للشرب والوضوء وفيه بيوت السكنى للمجاورين به وبالجملة فحرم القدس الشريف ثالث الحرمين الذين لا تشد الرحال الا اليها

وقد قدمنا انه يوجد بالقدس كنيسة تحج اليها الافرنج بكثرة ولهم موسم مخصوص يتحملون المشاق العظيمة سيما فى المدة الاخيرة يصادف موسمهم زمن الشتاء وبلاد الشام ذات أمطار وثلوج فيرتكبون العناء الاليم فى زيارة تلك الكنيسه وفى قبة الجبل كنيسة أخرى أيضاً بناها الروسيون وكلفوها باموال طائلة وزخرفوها فى غاية الجمال وهناك كنائس أخرى كما يوجد مزارات متعددة

وبالجملة فنقطة القدس الشريف محترمة عند المسلمين واليهود والنصارى ومن الغرابة ان اليهود يأتون كل يوم وقت المساء ويجتمعون حول جدران المسجد الاقصى ثم يصيحون بالبكاء ويرتفع ضجيجهم ويزداد نحيبهم وهم فى حالة تعيسة يستمرون على ذلك برهة من الزمن ثم ينصرفون ويعودون فى اليوم الثانى يفعلون كذلك وهكذا

ثم فى يوم الاربعاء الساعة الخامسة صباحا ٢ من ربيع أول أجرنا عربية بمبلغ عشرين فرنكا لزيارة مقام سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكانت المسافة بينه و بين القدس نحو خمسين كيلومتر فوصلنا اليه الساعه العاشرة مساء فدخلنا لزيارة مسجد سيدنا ابراهيم الخليل وهو كما قيل من بناء سيدنا سليمان عليه السلام وآثاره باقية فيه الى الآن فرأيت على ضريحه قبة و بابه من فضة وعليه مهابة واجلال لايخفى وفيه (قبة ضريح سيدنا اسحاق) وضريح زوجته * وفيه مدفن (سيدنا يعقوب هووز وجته) وكذا سيدنا اسماعيل فتشرفنا بزيارة مشاهد هؤلاء الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى كما اناتلونا شيأ من القرآن تبركا بتربة هذه الامكنة المطهرة

وزرنا أيضا حين مرورنا على الطريق (ضريح سيدنا يونس) عليه السلام وكذلك مررنا بالتربة التى ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام يقال لها (بيت لحم) وهو مكان محترم عند النصارى جدا وفيه رهبانيون وقسيسون وهو مزين جدا ومزخرف ومحل الولادة عليه صحائف من فضة مدورة الشكل والناس يدخلون الى هذا المحل طائفة بعد أخرى وهناك صورة المسيح موضوعة على ألواح معلقة على حوائط الدير من كل جانب وقد صوروه بصور بشعة تدل على الاهانة كتصويره ملقى على الارض واليهود يضربونه و يمثلون به والدم سائل وتصويره طفلا رضيعا بادى السوأتين ونحو ذلك من التصاوير التى المسيح برىء منها لانه أجل من ان يوصف بهذه الاوصاف ومنزه عما يدل على النقص والحط من شرف مرتبته العالية وفيه (ضريح السيدة مريم عليها السلام) وعليه كنيسة عظمى تحفها الزوار من الافرنج ورهبان الدير وكبراء القسيسين

وزرنا أيضا مقام سيدنا داود عليه السلام وهو بعيد عن القدس بنحو ثلاث كيلومترات وأغلب هؤلاء الانبياء حيث انهم من بنى اسرائيل عليهم

السلام بجوارهم كنائس تختلف كبرا وصغرا باختلاف اعتناء الزوار من الافرنج

وزرنا أيضا (ضريح سيدنا سلمان الفارسى الصحابى) و بقية المقامات التى لاتحصى فمكثنا بالقدس ليوم الجمعة فصلينا صلاة الجمعة بالمسجد الاقصى ولما فرغنا من زيارة هذه البقاع المطهرة ركبنا القطار الساعة واحدة بعد الزوال يوم الجمعة ٤ ربيع أول راجعين الى يافا فوصلنا اليها الساعة الخامسة مساء

ثم أردنا أن نسير الى الاقطار المصرية بعد أن أخذنا حظا وافرا من بلاد سوريا التى هى مهبط غالب الانبياء ومبدأ العمران الالهى والتمدن السماوى والقانون الوحيي

فركبنا فى يوم الاحد ٦ ربيع الاول نصف الليل بالباخرة المسكوفية واصبحت بشواطئ مينة حيفا الساعة ثمانية وقامت الساعه ٨ ليلا ففى بكرة يوم الاثنين وصلت الى بيروت وأمضينا بقية يومنا فيها ثم أجرنا فى الباخرة الفرنساوية الى الاسكندرية وسافرنا من بيروت الساعه ٨ مساء ومرت على يافا فى صبيحة اليوم التالى ثم غادرتها واستمرت سائرة بامر الله حتى الساعة ٥ صباح يوم الثلاثاء فرست ببرت سعيد و بقينا نتنزه الى الساعه التاسعه فعدنا الى مركبنا وسافرووصل الى الاسكندرية الساعه ٨ صباح يوم الاربعاء فنزلنا بحمد الله مطمئنين من كل روع ولم يصبنا فى سفرنا هذا شىء يذكر و بعد أن نزلنا من الباخرة مررنا على ديوان القمرق لاجراء التفتيش القانونى ثم استحسنا النزول باللوكاندة المصرية لنقاء هوائها وحسن مكانها وفخامة مبانيها فكانت تقر لها العين

(مدينة الاسكندرية)

سميت هذه المدينة بالاسكندرية نسبة لمؤسسها الاسكندر المقدونى الذى كان حاكما على مصر من البطالسة فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وكان هذا الرجل من أكبر فلاسفة الشرق وعظمائهم وقد فتح كثيرا من

الفتوحات ونجح فى أغلبها بالحكمة التى كان يتبعها وقد أنشا بهذه المدينة مكتبة تعد من أكبر مكاتب العلم من قبل المسيح وقد أحضر فيها ماينوف عن سبعمائة الف ناسخ ينسخون الكتب من اللغه العبرانيه واليونانيه الى لغه قدماء المصريين وهى الاغريقيه وقد بلغت مجلدات هذه المكتبة نحو ٢٤ مائة ألف مجلد وكلها من نفائس الكتب وأنفق فى سبيلها أموالا طائلة وأمتها العلماء والفلاسفة من اليونانيين والرومانيين والفرس وغيرهم لتعلم علوم الالهيات والرياضيات والطبيعيات والطب والهندسة والزراعه ونحو ذلك من دقائق الفنون الجميلة

وتداولت عليها الملوك وتنافسوا فى توسيع نطاقها حتى بلغت أوجها وكان اسكندر (المقدونى) قد أنشأ أيضا البناء المعروف بعمود الصوارى بهذه المدينة على جزيرة رأس التين كانت منفصلة عن البر واليوم أصبحت متصلة به وهذا العمود آية فى الصناعة وعجيب فى المتانة وغريب فى الظرافة فكانت اسكندرية زمن البطالسة قاعدة حكومة الاسكندر فشيدلها بما خلد أثره نقشا فى الاحجار وخطوطا فى الآثار فاستمرت تلك المكتبة أحقابا من العصور حتى جاءها قيصر الرومى باسطول مركب من أكثر من ٣٠٠ سفينة ومع ذلك وقع محصورا فى أيدى المصريين ولم يجد طريقا للفرار فحرق ذلك الاسطول خوفا من ان تصل اليه يد المصريين فيتقوون به وبقى هو محصورا فى جزيرة رأس التين فشبت النار حينئذ وارتفع لهيبها حتى التحقت بجزء كبير من البلد الذى فيه المكتبة فذهبت تلك الكتب هباء منثورا ضحية لرغبة قيصر الروم ومن هذا القبيل سواء بسواء مافعلته اسبانيا زمن فتحها الاندلس ولم يكفهم احراق الكتب الثمينة العربية بل صاروا يلقونها فى البحر وهكذا صنعت أيضا التاتار لما تغلبوا على بنى العباس بمدينة بغداد وكانت زهرة العلوم والعرفان وكانوا يأخذون الكتب ويرمونها فى الدجلة حتى امتلأ الوادى فصار جسرا تمر عليه خيولهم ولله فى خلقه شؤن

وأما ورد من ان هذه المكتبة قد أحرقها سيدنا عمرو بن العاص باذن

عمر بن الخطاب زمن فتح الاسلام فهو خال عن الحقيقة

ويبلغ عدد سكان المدينة نحو ٣٣٢ ألف نسمة وفيها منتزهات جميلة بضواحى البلد وعلى شاطئ البحر الابيض المتوسط ومن جملتها الرمل والنزهة والمنتزه وأبوقير وغير ذلك وفيها أشجار يانعة ومياه دافقة وهواء نقى صحى وهى مصيف المصريين من الطبقة الوسطى لان الطبقة العليا منهم من أهل الثراء يصيفون فى منتزهات عواصم أوروباوهم فى حب السياحة والميل الى التفرج على البلدان كالاوروباويين سواء بسواء من غير تفرقة بين الرجال والنساء والبنين فالاغنياء منهم ياخذون عائلاتهم بما فيها من الحريم والصبيان لابسين لباس الافرنج حتى ان من رآهم بشوارع باريز لا يمكنه معرفتهم ويساعدهم على ذلك معرفتهم باللغات الاجنبية واشتغالهم بها

وطباع سكان الاسكندرية تقرب من طباع المغاربة وكذا أكلهم وشرابهم والمدينة ذات شوارع متسعة ومبانى فخمه وقصور جسيمة ومساجد قديمة ومضيئة ليلا بانوار كهربائية ويشقها كثير من خطوط الترامواى لنقل الركاب باجرة معتدلة وهى نظيفة تقرب من نظافة مدن أوروبا لاعتناء المجلس البلدى بها بخلاف القاهرة لعدم وجود مجلس لدى يقوم بمصالح البلاد ونظافتها وبالجملة فمدينة اسكندرية هى محط رحال الغربيين والشرقيين تقصدها الاوروباويون أفواجا ويوجد فيها جميع الاجناس لمزيد تجارتها ورغدة عيشها ونقاوة جوها ونضارة رحابها

ويوجد فيها أوقاف للمغاربة الفقراء كسيدى عبد الله المغاورى وغيره يصرف لهم شئ من الاكل غير انها ليست منتظمة ويظهر انها تبدلت وتغيرت لتقادم العهد وفيها مقام البوصيرى صاحب البردة وقد زرنا كثيرا من المقامات للتبرك بتربة الاولياء والصالحين وفيها معهد دينى تدرس فيه العلوم الدينية عدد تلامذته يتراوح من ثلاثة الى أربعة آلاف ويعتبر فرعا من الازهر الشريف وتابع فى ادارة شؤونه لاوامر مشيخة الازهر يعين له شيخ من طرف شيخ الاسلام وكذلك معهد دمياط ودسوق وطنطا كلها فروع وأبوهم الازهر

وأما المدارس الاخر فتوجد بكثرة غيرانها ابتدائية وثانوية والمدارس العليا مركزها القاهرة

ومدينة اسكندرية كانت قبل الاسلام فى قبضة الرومانيين تحت قيادة المقوقس وافتتحها عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب وذلك فى سنة ٢٠ هجرية

وفى يوم الجمعة ١١ من ربيع الاول الساعة واحدة بعد الزوال عزمنا على زيارة مصر القاهرة وركبنا فى الدرجة الثانية باجرة النفر الواحد ٢١ فرنك ونصف فى القطار السريع يعرف عندهم بالكسبريس وهو اسرعته لا يقف فى الطريق الا فى المحطات الكبرى ولا يحمل البضائع بل متصور على الركاب وما خف من حملهم والمسافة بين اسكندرية ومصر ٢١٧ كيلومتر قطعها فى ساعتين ونصف وهو فى النهاية من السرعة وذلك لان أراضى مصر كلها معتدلة ولا تجد فيها ارتفاعات ولا منخفضات والخطوط الحديدية مستقيمه لا اعوجاج ولا انحناء فيها وكنا نرى من نوافذ القطار الاراضى مع اتساعها مرصعة بجواهر النباتات الطبيعية ما جعلها كعروس تميس بهجة والنسيم من تلك المناظر التى تاخذ بالابصار يهب شمالا وجنوبا ما صيرها كنوزا ونجوما

ولم يزل القطار مسرعا حتى الساعة الخامسة مساء فوصل الى مصر القاهرة فنزلنا فى تلك المحطة المتسعة الارجاء التى لا يوجد مثلها فى عواصم الشرق وطولها نحو ٣٠٠ متر فى عرض ٢٠٠ متر وبجوانبها أعمدة من صفائح الحديد متينة متباعدة عن بعضها وعلى هذه المحطة سقف مقوس مرفوع على تلك الاعمدة والسقف أيضا مركب من قضبان حديدية تشتبك مع بعضها بعضا على زوايا قوائم ويغطى نوافذ هذه الزوايا قطع من البلور النفيس تحتها ثلاثة خطوط حديدية يفصل بينها مراسح للركاب وعلى جوانبها اتساع وكراسى لراحة المارة فيها ولهذه المحطة ثلاثة أبواب منها باب لا يفتح الا لذوى المقامات العالية كالسلاطين والخديوى (رئيس حكومة مصر) وسفراء الدول ويسمى بباب الملوك والبابان الآخران لعامة الناس وهى عجيبة فى الاتقان

والمتانة ومما زادها نضارة وجود رحبة واسعة أمامها يتخللها طرق للعربيات وأخرى لخطوط الترموای ومغروسة بنباتات تحيط بها شبابيك حديدية

فلما نزلنا ركبنا عربية وقصدنا لوكاندة الكوكب المصرى بجوار المشهد الحسينى وبالقرب من الازهر الشريف وهى من الطرز الحديث والمصريون لهم دراية بالبناء ويحسنونه بغاية من الاحكام وبناء هذه اللوكاندة على أربع طبقات فالطبقة الارضية جعلت قهوة وهى متسعة ونظيفه ومضيئة بالكهرباء دائما مملوءة من أعيان تلك الجهات ويسهر فيها كثير من طلاب الازهر الشريف لاحترامها اذ لا تسمع فيها لغوا ولا فحشا بل الادب والوقار شيمة أولئك الافاضل وبيوت هذه اللوكاندة فى كل طبقاتها من أجمل ما يكون من النقاء والنظافة وعلها منظر جميل يرتاح له القلب وتطمئن له النفس وأجرة المبيت فيها بمبلغ خمسة قروش صاغ يوميا عن النفر الواحد وامام هذه اللوكاندة بناء مرتفع على شكل رحبته متسعة نحو ١٥ مترا فى عشرة تصعد اليه الناس لاستنشاق الهواء والنسيم خصوصا زمن الصيف بواسطة السلالم ونوره أيضا من الكهرباء وتحت هذه الرحبة مكان بقدر اتساعها أعدت للالعاب الرياضية وهى السيما تغرف ليليا فترى الناس مزدحمة فى كل يوم والدخول بثمن زهيد من ١٠ سانتيم الى ٢٠ سانتيم وتختلف الاجرة باختلاف الطبقات وأمكنة الرجال منعزلة عن امكنة النساء وبجنب هذه اللوكاندة المكتبة الحلبيه الكبرى وهى من أعظم مطبعة انشئت بمصر فى هذا العهد وقد اشتهر أصحابها بالصدق فى القول والاخلاص فى العمل وأما الاتقان عندهم فمحددة واتسعت تجارة هذه المطبعة اتساعا فاق جميع المطبوعات وقد خدم الكتب العربية جليل خدمة حيث انه طبع الكتب النفيسة وأحيا مجلدات ضخمة كانت فى زوايا الاهمال وأبرزها للعيان فتلقتها الناس غربا وشرقا بالقبول فكانت هذه اللوكاندة مع ان الاجرة فيها مبيتا وشرب قهوة ضعف من بقية اللوكاندات المتكاثرة حول ضريح المشهد الحسينى أكثر جمالا وألطف مكانا وانضر حالا بسبب موقعها الصحى وما أحرزه القائمون

بها من الثقة والاخلاص

ففى صباح يوم السبت زرنا ضريح سيدنا الحسين رضى الله عنه تحفه المهابة والجلالة يوجد حول الضريح مقصورة من النحاس الاصفر الابيض مرتفع جدا ومصنوع بغاية من الدقة ومعلق عليه ألواح فيها خطوط جميلة ومكتوب فيها آى القرآن والاحاديث ويعلو هذا الضريح قبة هائلة قديمة مزركشة من الداخل بكثير من الالوان ومموّهة بخطوط وحلقات وتزايق شتى بادهان تلمع كلون الذهب وهذه القبة مرفوعة على جدران أربعة فى شكل زاوية قائمة ضلع كل واحدة نحو عشرة أمتار والمسجد على باب الداخل الى الضريح من الجهة الغربية وفى هذا الجامع أعمدة من الرخام عزيزة الوجود لمتانتها ونقاء معدنها وتراها تلمع كانها نحتت بنت يومها وهذه الاسطوانات مرفوعات على حجارة من الرخام أيضا لكن على شكل مكعب فى ارتفاع مترعن سطح المسجد وفيه بيت لا يفتح الا فى المواسم والاعياد ويحتوى على آثار النبى صلى الله عليه وسلم وهى قطعة من قميصه وبعض شعرات ومكحلة ومرود وكذلك آثار الخلفاء والكل مجعول داخل صندوق فى خزانة بحائط يمين الداخل ولهذا المشهد احتفال كبير عند المصريين وتقدم اننا قلنا له مشهد آخر بالشام ويحكى أيضا أن له مشهدا عظيما بعراق العجم المبالغين فى حب سيدنا على فكل فريق يعتقد الصحة فى مشهده والحقيقة يعلمها الله وان كان الاقرب ان الضريح الموجود بالشام هو المدفون فيه رأس سيدنا الحسين

ومما زرنا أيضا الازهر الشريف الذى هو عبارة عن مدرسة اسلامية جامعة تدرس فيها سائر العلوم تؤمها الطلاب من المعمورة كلها

وقد بلغ فى العمر من يوم تاسيسه نحو تسعة قرون وكسور وهو زمن الفاطميين وله أبواب متعددة منها باب المزينين وباب الرواق العباسى وباب المغاربة وباب الشوام وباب الصعايده وباب الحرمين وباب الشوربه وباب الجوهريه وباب صغير للميضأة وهو متسع جدا وبداخله رحبة فسيحة مبلطة يحيط بها عدة أروقه وبعد هذه الرحبة المسجد يوجد

يوجد باطراف الرحبة مما يلى الاروقة والجامع كتاتيب متعددة لتعليم الاطفال كلام الله وفى داخل المسجد قبلتان قديمة وجديدة فالقديمة فيها محراب الشافعى والجديدة خاصة بالمالكى والجمعة تصلى على مذهب مالك وبنيانه ليس بمزخرف لكنه متين وسقفه مرفوع على أعمدة تجتمع باقواس منحنية وفى هذا السقف منافذ كثيرة للتنفس لازدحام العالم فيه

ويحيط به من جميع الجهات أروقة بعضها للمصريين والاخرى للاغراب مثل المغاربة والشوام والاتراك والهنود والحجازيين والبغداديين والسودانيين والافغانيين وغير ذلك من الجهات وفوق هذه الاروقة أدوار فيها بيوت لسكنى المجاورين الفقراء وتدرس فى الازهر العلوم الشرعية والعربية والعصرية الحديثة وسائر الفنون الجميلة باحسن أسلوب يفهم الطالب ويزيد فى ذهنه ويقوى ذاكرته ويربى له ملكة تؤهله للمشاركة فى جميع العلوم (حالة الازهر فى القديم) كان كل من العلماء والطلاب تحت ارادة أنفسهم فمن شاء الاشتغال بالعلم دخل فى زمرة المشتغلين ومن تكاسل عن حضور العلم هجر الازهر وأهله ولا مجازاة للاول كما أنه لا معاقبة للثانى لان حضور العلم وقتئذ كان بحسب الرغبة خال عن المراقبة والجبر

ففى سنة ١٣٢٦ هجريه أرادت الحكومة المصرية أن تجعل نظاما للازهر يكون فيه حث للطلاب على الحضور ويراقبون فى دروسهم حتى لا يتغيب منهم أحد ومن خالف يعاقب فسنت قانونا لذلك لكن الازهريون لم يعتادوا النظامات لانهم يقولون ان هذه أمور خاصة بالمدارس ونحن لسنا منهم ولا هم منا فارتفع ضجيجهم بالشكوى وهيجت خواطر الناس رأفة بهم فاضطرت الحكومة لالغاء ذلك القانون والرجوع الى الحالة القديمة حتى تجدد لهم قانونا آخر يضمن للازهريين راحتهم وبعد سنة جعلت لهم قانونا مصدقا عليه من مجلس الامة والوزارة ورئيس الحكومة فاصبح سيفا قاطعا لا يقدر الازهريون على رده فعجزت قوتهم بعد أن حاولوا الامتناع منه واليوم قد خضعت له رقاب العلماء والطلاب من المصريين وفى هذه

السنة أرادت مشيخة الازهر أن تنفذه أيضا على الاغراب من الاجانب كالمغاربة والاتراك ونحوهما ورأت الطلاب من الاغراب أن هذا القانون يخالف قواعدهم المتبعة عندهم فاجمعوا كلمتهم انهم لا يقبلون ولا مادة واحدة من القانون الجديد ولما رأت منهم الحكومة الغلظة هددتهم بالقوة فخاف البعض وامتثل لاوامر المشيخة واشتد الفريق الآخر وهم الاتراك والمغاربة وهموا على رفض قرار المشيخة القاضى بتعميم النظام الجديد على الاغراب

غير أن المغاربة انقسموا الى فريقين فريق يرغب الدخول فى النظام حيث ان فيه حثا على الحضور وأداء الامتحان فى آخر كل سنة والمراقبة الشديدة حتى لا يتغيب أحد وهذه الامور مصلحة توجب على طالب العلم الاذعان اليها وأما الفريق الآخر وهم الاقدمون من الذين تجاوزا عشر سنين الى ٥٠ سنة فى الازهر فامتنعوا امتناعا باتا لما رأوه من أنفسهم من القصور وعدم أداء واجب العلم لكى ينتحلون أسبابا لامتناعهم ويقولون ان ادارة الازهر تريد أن تأخذ منا أوقافنا ونحو ذلك من الكلام الغير المعقول

مع أن النظام ان كانت فيه شروط لا تليق بوظيفة حال الغريب ولا تتفق مع مصلحته فينبغى طلب تعديلها بمواد أخر تنطبق على المنفعة التى سافر لاجلها

وقد وجدنا هم مع المشيخة فى اشتداد ونزاع ولما سافرنا تركناهم كذلك ويوجد فى الازهر والمعاهد التابعة له نحو أربعمائة عالم مباشرين للتدريس واما المجاورون فى الازهر فقط فيبلغ عددهم نحو اثنى عشر ألفا ورئيس الازهر شيخ الاسلام وله وكيل ينوب عنه

وزرنا أيضا عدة مساجد مثل المؤيد ومسجد الرفاعى ومسجد ابن طولون ومسجد محمد على باشا بالقلعة وهذا الاخير أحسن مسجد بمصر وهو فى أعلى نقطة تشرف على مصر لانه موضوع فى القلعة التى هى حصون الثكنات العسكرية بطرف جبل المقطم فوق مصر وهذا الجامع متسع مبنى ببناء يعجز عنه المتأخرون فجميع جدرانه من الداخل والخارج مغطى بالواح كبيرة من الرخام النفيس وفى داخله أعمدة من الرخام أيضا تأخذ بجامع

القلوب لبهجتها وحسن هيئتها وله منبر عليه نقوش غريبة ومملون بالوان تقلا كالنجوم ومفروش بابسطة بلغت الغاية القصوى فى دقة الصناعة ورقة الظرافة وقد أدخل له النور الكهربائى وفى وسطه دائرة حديدية معلقة بالسلاسل من القبة وسعتها تبلغ نحو عشرة أمتار فى قطرها وفى داخل هذه الدائرة خطوط منحنية على شكل بديع وباطراف هذه الدائرة والخطوط المشتبكة مع بعضها مصابيح وقناديل كهربائية وبهذا الشكل استنار المسجد وجامع الرفاعى المذكور لا يخرج عن مثل هذا

واما بقية المساجد فهى متينة ومتقنة من جهة الصحة والهندسة وعتيقة وعليها نقوش بديعة وخطوط كوفية وكتابات بالخط الحديث وموضوعة على شكل يدل على أن الصناعة فى العمارة والهندسة فى الزمن الغابر كانت رائجة بمصر سيما من حيث الصلابة والمتانة كجامع المؤيد الذى يرى من الداخل والخارج كانه حصن من حصون الثغور أو قلعة من قلاع العساكر وأغلب هذه المساجد أسس باسماء ملوك مصر وأمرائها وتلك عادة جارية من قديم الزمن كانوا يتفاخرون بعمارة المساجد وبناء الاسبلة وهى أحواض تملأ كل يوم بالمياه لسقى المارة من الناس ووضعوا لذلك أوقافا تصرف ايراداتها على خدمة المسجد ولوازم فرشه وكذا ما يحتاج له السبيل

(أقدم مسجد وفتح مصر)

ومن أقدم المساجد بمصر مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه المعبر عنه بالفسطاط وهو أول مسجد أسس على التقوى فى افتتاح الاسلام للقطر المصرى وذلك ان مصر كانت قبل الاسلام تحت أمير يقال له المقوقس من الروم وكانت قبل أن يحتلها قيصر الروم تابعة للبطالسة نسبة الى بطليموس وقبل زمن البطالسة كانت تحت امارة قدماء المصريين وهم عائلات ملوكية

وفى خلافة سيدنا (عمر بن الخطاب رضى الله عنه) سنة (١٨) هجريه (٦٤٠) ميلاديه افتتحت بالاسلام تحت قيادة (عمرو بن العاص) ومعه

جيش يبلغ عدده أربعة آلاف وانضم اليه فى الطريق من القبائل عدد كثير ولما وصلوا الى مصر أمر قائد الجيش بحط الرحال والخيام بمكان الفسطاط وصارت خيمة الامير عاصمة للحكومة ومسجد الاداء الفرائض وللمصريين احتفال عظيم بهذا المسجد سنويا غير أنه مع تطاول الزمان ومرور العصور أصبح بنيانه عتيقا كشيخ فى شيخوخته وتحولت السكان عنه واستمر العمران بجهات أخرى وأمسى بطرف البلد بعيدا عن الناس بعد ان كان فى بحبوحة الجماعة ومركز الرئاسة وديوان السياسة وعلى هذا المنوال جرت سنة الله فى خلقه على حد قول المثل (يوم لك ويوم عليك) ولن تجد لسنة الله تبديلا

وممازرنا الكتبخانة الخديوية وبناؤها من الطرز الحديث متسع ومتقن فى الزخرفة وفريد فى النظافة ومفروش بالرخام النفيس وتحفه النضارة ومحكم فى وضعه الهندسى وله نوافذ للجهات الاربعة وحوله شوارع متسعة تمر فيها خطوط الترامواى وقريب منه محكمة الاستئناف والمحافظة

والكتبخانة على طبقتين فالطبقة الارضية أودعت فيها الآثار العربية والعليا جعلت خاصة لمطالعة الكتب والتفرج عليها

فوجدنا فيها من المصاحف القرآنية المدهشة عددا كبيرا بعضها مكتوب بالخط الكوفى بالقلم الغليظ يمكنك قراءته من بعد خمسة أمتار وبعضها بالخط الجيد القديم والبعض الآخر بالخط الاندلسى وهناك خطوط أخر كالنسخى والثلثى تعرفها المشارقة وكلها قد اكتسبت من الجمال والمهابة ما يأخذ بزمام القلب فى زوايا الدهشة وأكثر هذه المصاحف موقوفة باسم السلاطين المكتوبة فوقها أسماؤها وموضوعة فى شكل ضخم جدا وبعض المصاحف متوسطة وترى كتابتها كأنها بنت اليوم لونا ولمعانا

وفيها كتابات قديمة على الاحجار والعظام وقطع من الفخار وورق الاشجار وتلك الكتابة خالية من النقط والاصطلاحات الحديثة وكانت هذه الطريقة قبل حدوث صناعة الورق وأن النقط للحروف انما حدث لما

وقع الاشتباه لدى بعض الناس وخافت الصحابة زمن معاوية من وقوع التبديل والتغيير فى كلام الله فامروا بنقط الحروف ازالة للابهام ورفعا للالتباس

ومما يوجد فيها أيضا كتب بالخط الفارسى القديم ومهارة هؤلاء الفارسيين فى الكتابة والتصوير بديعة كانوا يكتبون الوقائع الحربية ونحوها ويزينونها برسوم جيوش تلك الوقائع وملابسهم وسلاحهم وهجومهم والغرابة انما هى فى وضع تلك الرسوم والصور المكونة من ألوان شتى تحكى لنا الصورة العجيبة مضت عليها عدة قرون ولم يبق أثرها الا فى الخيال ومهارة أياديهم أبرزتها من الخيال الى الحس والمشاهدة فى حين ان زمنهم لم يصل الى ذرى الترقى فى الاكتشافات

وقد حدثت اليوم مطابع تساعد بنى الانسان على تصوير المعقول فى قالب المحسوس تقريبا للافهام لكن الرونقة والظرافة قد حازهما المتقدمون (والفضل للمتقدم)

ومما تحتويه الكتبخانة أيضا نقود السلاطين والامراء القابضين على زمام مصر فى العهد القديم من دولة بنى العباس والامويين والفاطميين والاتراك ونحو ذلك من العظماء وبعض هذه النقود مكتوبة بالخط الكوفى وبعضها بالخط الحميدى والبعض الآخر بالخط الحديث

وفيها ما هى من العملة الذهبية والفضية والنحاس والمعدن وكتب بجانب كل دينار أو درهم اسم الخليفة والسلطان أو الامير وتاريخه

وقريب من هذا المتحف الاثرى قاعة المطالعة تؤمها الناس لمطالعة الكتب النفيسة التى لم تنتشر الى الآن وفيها كتبة معدون لنسخ الكتب وهذه القاعة مزينة بخرائط حائطية جغرافية بالخط العربى وهى دائما مزدحمة بطلاب العلم وفيها من الكتب العتيقة والحديثة ما لا يدخل تحت حصر كما انه يوجد فيها كتب باللغات الافرنجية مع اختلاف أنواعها وتشعب ألسنتها

وبالجملة فدار الكتبخانة الخديوية هى المكتبة الكبرى الاسلامية فى الشرق والغرب بعد الاندلس وبغداد وقد عبثت الايام بالمجلدات الاندلسية والبغدادية وبقيت هذه المكتبة فريدة فى هذا العصر

وأما الآثار العربية الموجودة بالطبقة الارضية للكتبخانة فهى تحتوى على كثير من كتابات قديمة نقشت على الاحجار المختلفة الشكل وفيها أيضا أخشاب قديمة على هيئة أبواب وصناديق وخزن وكراسى بلغت النهاية فى دقة الصناعة والنقوش الغريبة وفيها كذلك الاقمشة الحريريه ومعامل الغزل والنسج وعدد كثير من الاسلحة كالسيوف المتنوعة والسكاكين والرماح والنبل والسهام وفيها الملابس القديمة والابسطة المزركشة والمصابيح الطينية والزجاجيه معلقة بالسلاسل وكذلك هيئة المحمل والهودج وكسوة الحرم المكى وغير ذلك من الآثار الفخيمة التى تدل على ان تلك الامة كانت راقية فى صناعتها

ومما يوجد فيها رخامة رسمت فيها المزولة الفلكية يعرف بها الاوقات طول النهار كالساعة بل هى أضبط من الساعة لان الساعة اذا اعتراها خلل يرجع فى ضبطها الى المزولة وفن المزاول كان مشهورا عند العرب وهم أول من استنبطه وتنوعوا فيه وما رسوه ممارسة أخلدت لهم شرفا وثناء جميلا

ومما وقفنا عليه فى هذه السياحة بالديار المصرية الانتيكا وهى الدار التى جمعت الآثار القديمة لقدماء المصريين زمن الفراعنة الذين هم فى الدور الوثنى وكذا من قبلهم ومن بعدهم قبل المسيح وبعده شيد لها مكان جميل المنظر بالقرب من نهر النيل والدخول فى هذا المتحف الاثرى ليس مباحا من غير أجر كما هو الجارى بالمتحف الاثرى الباريسى بل جعلت مصلحة المتحف خمسة قروش صاغا عن النفر الواحد وهذا المتحف شيد على طبقتين كبيرتين طولا وعرضا الاولى أرضية تحتوى على الهيا كل الجسيمة من الاحجار وعليها كتابات بخط قدماء المصريين وهذه الكتابة وضعت فى شكل حيوانات وطيور على سلسلة رأسية لان الخط القديم كان بعضه يكتب من الرأس الى

القدم وبعضه عرضا من اليمين الى الشمال كالعربى والبعض الآخر بالعكس من الشمال الى اليمين كخط الافرنج

وفيها أيضا معبودات متعددة من حيوانات كعجل السامرى وخروف وطائر مشهورين فى التاريخ الوثنى وهناك هيكل كبير يبلغ ارتفاعه نحو خمسة أمتار فى عرض ثلاثة ومثل هذا من الشكل الصغير لا يحصى وفيه قبور للاموات منحوتة عدد عظيم والكل مصنوع من الحجر الطبيعى النفيس والبعض مصنوع من الحجر المركب من أجزاء امتزجت ببعضها فصارت فى الصلابة أشد من الطبيعى وهو الصناعى وفى هذه الآثار كتابة تبين اسم صاحب الهيكل وتاريخه وفتوحاته وما عليه من البسطة والسعة

وأما الطبقة الثانية ففيها ما لا يحصى من القبور القديمة الخشبية المصنوعة بغاية من الدقة ورسم على ظاهرها صورة المدفون فيها ذكرا أو أنثى بملابسه تامة الاطراف

وفى هذا الرسم من الالوان غرابة يحير لها الفكر وأما داخل هذه القبور فيوجد فى أكثرها جثث آدمية (كفرعون موسى) وأضرابه من الفراعنة والطغاة والجبابرة اما هيكل فرعون موسى فمشهور عند المصريين حتى ان كل من مر عليه من الاغراب تنبهه العساكر المختصة بحفظ نظام هذا المتحف

فتشرئب الناس باعناقهم محبة فى الاطلاع على الاحوال الدقيقة فى تلك الهيا كل فرأينا هذه الجثة مغطاة بنسيج من قضبان البردى وفوقها قماش بال من الحرير يضرب الى الصفرة مع بياض وأمام صفحة صدره الى الرأس فمكشوف يرى لحمه اليابس من الجلد فى شدة اسوداد لاصق بالعظم وفى رأسه انكسار خارى لطول الزمن وفمه مفتوح قليلا تظهر منه أنيابه وأضراسه كانه لم تسقط له سنة فى حياته وعظم وجنته خارج ومنخره محدودب وعيناه قد غارتا وهو ممدود على ظهره وصفحة عنقه من الامام تتبين منها الاوداج وكتفاه مكسيان بجلده اليابس والذراعان مغطيان بالقماش

وبالجملة فقد اشتمل على حالة تنفر منها الطباع وتقشعر منها الجلود وتشمئز منها النفوس فمن الناس من تدمع عينه عند مشاهدة هذه الجثث المروعة التي جعلها الله تعالى آية للعالمين وعبرة للمعتبرين حيث ان هؤلاء الجبابرة كانت قد ادعت الربوبية وهم في سعة الملك وعزة النفس مازاد في طغيانهم فامسوا في حالة من المهانة تكره النفوس رؤيتها في هذه الدار فكيف بهم في تلك الدار وفي هذه الطبقة كثير من هذه الهيا كل المزعجة ترى البعض اياديها يابسة وأصابعها منحنية والاظافر بحالها والبعض ناقصة الاطراف وفي حفظ هذه الاجسام من الضياع من زمن العصور الغابرة الى يومنا دلالة كبرى على تقدم أولئك القدماء في صناعتهم واتقان أمورهم خصوصا في استعمال الحنوط لحفظ موتاهم من التغيير بحيث لا يطرأ عليهم شيء مثل الدود والحشرات ونحو ذلك مما يبيد الاجساد ولو كانت من حديد كدفنها في التراب وتوالي الامطار والسيول ونسف الارياح كل ذلك كانوا يدبرون عاقبته ويجعلون ما يحفظ لاجسادهم بعد موتها راحتها من التغيير والتبديل فتبقى بقاء الدهر

وهذه الصناعة العزيزة الوجود مفقودة اليوم غير موجودة بالمرة وقد تحيرت منها الحكماء وعجزت عنها الاطباء فتوقفت مهارتهم دون الوصول اليها بعد ما بذلوا النفس والنفيس في اكتشاف حقيقتها ورفع القناع عنها

ويوجد أيضاً في هذا المتحف هيا كل من العساكر بملابسهم وأسلحتهم وهم في حالة من يريد الحرب مصطفين رباع رباع نحو الاربعين نفراً وكذا فيه عقود ذهبية وفضية وسلاسل كذلك ودروع حديدية ونحاسية فمن جملتها عقد من الذهب محشو بالحلقات الجميلة والخطوط المزركشة والصناعة الدقيقة ممتد من العنق الى أسفل الصدر ولونه شديد الوهاج وأما التيجان والخواتيم والفصوص وصفائح الذهب والفضة وغير ذلك فشيء لا يعد

ومما رأينا فيه من الغرابة هيا كل حقيقية للحيوانات مثل القردة

والغزلان والخيل فترى أصابعها وأظافرها واللحم يابس على العظم ورؤسها مرتفعة تظهر أسنانها من أفواهها وبعض قد ذهب بعض أجزائها وهي في وقوفها مسندة على عيدان وضعت بشكل مخصوص تحفظها من الوقوع

وتقصد هذا المتحف الاروباويون زرافات لمشاهدة ما احتواه من عجائب الدهور وغرائب الزمان

(الاهرامات)

ومن الامور التي تفتخر بها الامة المصرية قديما وحديثا الاهرامات وهي خارجة عن القاهرة متصلة بها بخطوط الترامواي باجرة خمسين سانتيما للنفر الواحد فتوجهنا للتفرج عليها ورؤية مبانيها فوجدناها آية عظمى وعبرة كبرى يتعظ بها المتعظون وهذه الاهرامات قد شيدت قبل ظهور المسيح عليه السلام ويقال ان من شيدها ملوك ثلاثة (خوفو) و(خفرع) و(منقرع) فاشتهروا بتشييدها وقد جعلوها مقابر لاجسادهم ويبلغ ارتفاع أعلاها ١٤٧ مترا ومساحته نحو (١٥) فدانا والفدان يساوي (٤٠٤٢) مترا وهي مبنية من أحجار جسيمة محكمة الصنعة والوضع مما لا يقدر على بنائه الا أمة بلغت الغاية في الهندسة وجر الاثقال وكان يشتغل في الهرم الكبير نحو مائة ألف عامل يتناوبون في كل ثلاثة شهور وكان العمل يزداد في مدة فيضان النيل لخلو الاهالي عن العمل وقد فتحه المأمون العباسي بعد أن هدم قمته سنة (٥١١) هجرية وأخذ منه على ما يقال تابوتا من الحجر الازرق وبعد فتحه وجد فيه جثة وبعض الحلي وتماثيل من الذهب والاهرام الثاني ارتفاعه (١٣٥) مترا والثالث مات عنه بانيه (منقرع) في ارتفاع (٦٦) مترا وزاد فيه من بعده حتى أتمه وكساه بالاحجار الملساء

فقد أدهشتنا هذه الآثار الغريبة والاهرامات العجيبة والتماثيل الوحيدة التي من بعضها قرب الاهرام صخرة عظيمة نحتت على شكل غريب الصورة له جسم الاسد ورأس الآدمي ويعرف (بابي الهول) وقد تشوه رأسه

الآن وارتفاعه عن سطح الارض نحو (٢٠) مترا فرجعنا فى يومنا ذلك مسرورين بما شاهدناه وان كنا نسمع به من قبل لكنه ليس راء كمن سمع

وتعداد مدينة مصر القاهرة يبلغ نحو (٦٥٤) ألف نسمة وهى واقعة على الشاطىء الايمن للنيل ولها متنزهات متعددة بضواحيها وفى داخلها حديقة منتظمة على النسق الاروبوى هى مركز الاحتفالات العمومية ومن جملتها احتفال النزلاء الفرنسويين بعيد (١٤) جولية وأما باقى الايام فالدخول اليها للنزاهة يؤخذ عن الشخص (١٠) سانتيما ومما زاد لمصر بهجة مرور النيل باراضيها وعليها مدار حياتها وماؤه عذب حلو يفيض على الاراضى فى كل سنة فيوسعها من الخيرات الجزيلة ويبلغ طول نهر النيل أربعة آلاف ميل والميل (٤٤٤٤) مترا وهو ينبع من خط الاستواء ببحيرة فكتوريا باواسط أفريقيا عند خط الاستواء ويخترق فى طريقها بلاد السودان وينضم اليه كثير من الانهر الصغيرة ويصب فى البحر الابيض المتوسط بقرب اسكندرية

﴿ اخلاق المصريين وطباعهم ﴾

من أخلاقهم حب العمل والنشاط والجد والسعى وراء المصلحة ويكرهون الكسل والخمود سواء فى ذلك غنيهم وفقيرهم فصاحب الثروة لا يتخذ القعدة حرفة والجمود صناعة اعتمادا على ماله من الغنى الواسع بل يتخذ لنفسه وظيفة من وظائف الحكومة أو من الوظائف الحرة يكتسب منها مبلغا وافرا ليستهان به وتمرينا للنفس على احتمال مشاق العمل حتى اذا انقلبت الايام وأحطت به الى مرتبة الفقراء كان قادرا على التعيش بسبب ماله من الاستعداد من قبل

وكذا يباشر التاجر منهم تجارته والفلاح فلاحته من غير أن يعتمد على غيره فى ضروريانه وهذا الطبع الجميل كان من حسنات القدماء فكان القدماء من المصريين يكرهون الليل لانه يمنعهم عن العمل فى حاجياتهم

ويحبون النهار حيث يساعدهم على ما تطبعت عليه أنفسهم من استمرار الشغل وترك الكسل

وأما التعليم بمصر فزاد خطوات فى الانتشار عما كان عليه من قبل وذلك أن المدارس كانت فى العهد القديم مراكزها فى المدن والقاهرة فقط وأما اليوم فقد انتشر افتتاح المدارس والمكاتب فى الارياف والاطراف والمدن والقرى وهذه الكتاتيب وان كان التعليم فيها ناقصا لكنه يجدى فائدة عظيمة لاولئك الفقراء الذين لا استطاعة لهم على النفقة الباهظة فى تعليم أبنائهم فبواسطة هذه المدارس الابتدائية المنتشرة بارجاء مصر وأريافها خرجت تلك الامة من ظلمات الجهل الى نور العلم واكتسبت معالى الامور من الآداب والتربية والاخلاق الفاضلة فصغار هذه الكتاتيب تعلمت عن ظاهر القلب الواجبات الدينية وهى مبادئ التوحيد وما تصح به العبادة من صلاة وصوم وزكاة وجانب من السيرة النبوية ونصيب من القرآن

وكذلك ما يحتاج اليه التلميذ فى مستقبله مثل الخط والقراءة والمطالعة والاملاء والانشاء وقواعد النحو ومبادئ الصرف والقواعد الاربعة من الحساب والجغرافية اجمالا

فهذه العلوم التى هى أساس المطولات يحفظها على وجه الاتقان صغار الاطفال من غير تفرقة فى ذلك بين البنين والبنات

هذا مقدار التعليم فى الارياف وأما مبلغ ذلك فى الحضر فلا تسل

وبالجملة ففى مصر مدارس عليا يتخرج منها الفطاحل من العلماء والمعلمين والمهندسين والفلاسفة والاطباء والخطباء والحكماء وغيرذلك من رجال العلم الذين لا تحصى مراتبهم فى الكمال

ولم يقف شغفهم فى حب العلم عند هذا الحد بل يشدون لطلبه الرحال الى عواصم أوروبا مثل كليات فرانسا وغيرها فيتعلمون هناك العلوم الراقية كالحقوق والطب والهندسة والرياضة والفلسفة وغيرذلك مما يختلف باختلاف رغبة الطالب وأكثر ما تميل اليه نفوس المصريين من اللغات

الاجنبية هى اللغة الافرنسوية فيحبونها حبا زائدا ويؤثرونها على غيرها ولهم أيضا مودة مع النزلاء الافرنسويين عندهم وكذا يجاملون كل من يتكلم بهذه اللغة فيفرحون به فرحا يقدرونه حق قدره وهذا قد شاهدته منهم يوم تكلمت معهم باللسان الفرنسوى فى مصر واسكندرية فاحترمونى احتراما بالغا وأظهروا مودتهم الى الامة الافرنسوية واخلاصهم اليها

ومما يدلك على هذه العاطفة الودية من المصريين ان طلبة العلم بالازهر الشريف قدموا طلبا مصدقا عليه من (٤٢٥) مجاورا الى جناب قنصلاتو دولتنا الفرنسوية بواسطة الشيخ المولود بن الصديق اليعلاوى الجزائرى طالب العلم بالازهر أيضا ملتمسين منه أن يفتح لهم مدرسة خاصة بهم يتلقون منها دروسا فرنسوية ولم تزل الواسطة المذكورة تمهد السبيل لرغبة الازهريين حتى اكتسب ثقة جناب القنصلاتو ودارت المداولة بينه وبين السفير والوزارة الخارجية فتقرر الامر نهائيا على فتح المدرسة طبقا لمصلحة الازهريين الذين هم أعلم الناس بالمصالح الدينية والدنيوية وافتتحت هذه المدرسة بالقرب من الازهر الشريف بشارع الغورية والتحق بها نحو (٣٥٠) من طلاب العلم وأقيم لها يوم افتتاحها احتفال عظيم حضره من رجال الحكومة الفرنسوية دولة المعتمد السياسى وجناب القنصلاتو ورجال من حاشيتيهما وجناب مدير مدرسة الحقوق الفرنسوية وتليت خطب التهانى بين الازهريين ورجال الحكومة * فخطب نيابة عن الطلبة (الشيخ المولود ابن الصديق المذكور) وخطب أيضا أحد معلمى هذه المدرسة ثم خطب دولة السفير المعتمد الوزير فاعرب عن ضميره وعن لسان الحكومة بما يبذله من المساعدة جهد طاقته نحو الازهريين رغبة فى تعليمهم لغة دولته مع تيسير الطرق الموصلة الى الحصول على طلباتهم العزيزة كما انه أعرب عن سروره المتزايد مع الثناء بالفاظ رقيقة المعانى

وبالجملة فكانت ليلة الاحتفال بهذه المدرسة ليلة زاهية فائقة فى جمالها وقد حضرها كثير من أعيان البلد وطلاب المغاربة بالازهر الشريف

وهذا الاحتفال وان كنا لم نحضره يوم سياحتنا بمصر لكنه لمزيد الاعتناء به مع ان الشيخ المولود المذكور قد حدثنى عنه كما ان حضرة الشيخ الحاج عيسى أحد رفقائنا قد شاهده ولذلك أدرجته فى رحلتى هذه فانا لا يسعنى الا الثناء الجميل على حكومتنا الساعية فى نشر لغتها لفضلاء الازهريين ونخبة العلماء والمتعلمين

ولا غرابة فى هذه المنحة الجليلة لانها تقدر العلم حق قدره وتبسط البذل فيه للعطاش وتكثر من العطاء للطلاب كما انى أمدح من صميم قلبى أولئك العظماء من تلامذة أكبر جامعة اسلامية فى اكبر عاصمة بالقارة الافريقية

وأما الشيخ المولود بن الصديق فلم يكتف بما ذكر بل لا يزال يسعى بالجد والاجتهاد حتى أحرز ثقة أخرى تضمن للازهريين مستقبلهم وهى ان الحكومة الفرنسوية ترسل فى كل سنة نفرين على الاقل من متخرجى هذه المدرسة الى كليات فرانسه لاتمام التعليم هناك على نفقة الحكومة فلبى طلبه جناب قنصلاتو وصدر القرار بذلك فانشرحت زيادة صدور الازهريين

﴿ بيان من اجتمعنا بهم بمصر ﴾

وممن اجتمعنا بهم بمصر حضرات الفضلاء طلبة العلم بالازهر الشريف من القطر الجزائرى منهم الشيخ المولود بن الصديق المذكور من قرية بنى حافظ دائرة قرقور اليعلاوى قبيلة ايالة قسنطنيه والشيخ السعدى محمد من ضواحى خنشله دوار أولاد ناصر والشيخ اسماعيل الجيجلى بفلاج طاهر كلاهما من عمالة قسنطنيه أيضا والشيخ مولاى بن الشريف بن المكى من بلدة فرنده والشيخ محمد بن حسنه من ضواحى بلدتنا معسكر كلاهما من ايالة وهران وحضرات الفضلاء الشيخ عمر بن عيسى والشيخ محمد بن يعلى والشيخ مهنى بن داود وكلهم من سكان جربة التابعة للاقطار التونسية وكثير من الطلبة أيضا لا أتذكر أسماءهم وأما من التجار فقد اجتمعنا مع حضرة الفاضل السيد على بن الحداد الجزائرى والسيد اسماعيل بن دياب التونسى والسيد

يونس كذلك وحضرة الحاج محمد بن السامى الكتبى الشهير التونسى

وقد حصل لنا بهم الانس التام خصوصا حضرات المجاورين الازهريين لم يفارقونا ليلا ولا نهارا وأزالوا عنا كل ما يطرأ على القلب من آلام الغربة وضروب الوحشة وكنت بالاخص ملازما للمسامرة معهم بعد ما ينام رفقائى ونتجاذب ما طاب من الكلام ولذيذ الحديث حتى يذهب من الليل اكثره ثم يذهب كل واحد منا لمرقده بعد تحية وتعيين ميعاد يجمعنا فى الغد وعلى هذا المنوال كانت أيامنا بمصر فسواء ليلها ونهارها فى البهاء

ومما زاد نا جمالا ما صادفناه من موسم المولد النبوى بمصر فبلغ فى الحقيقة الاحتفال به مبلغ الغرابة فى الاعجاب والزينة فلما قدمنا اليه وجدنا مكان الاحتفال بضواحى القاهرة يسمى بالعباسيه فكان متسعا جدا وأرضه ذات رمال لطيفة تحيط بهذا المكان خيم على شكل محيط دائرة بعضها لرجال الحكومة المصرية منها خيمة مكتوب عليها سمو الخديوى والبعض مكتوب عليها نظارة الاشغال وهكذا من نظارة المعارف ونظارة الداخلية ونظارة الأوقاف ونظارة الزراعة ونظارة الحربيه ثم يلى هذه الخيام خيام اخرى لاعيان البلد ثم يليها خيام لمشايخ الطرق مع اختلاف انواعها وبداخل هذه الخيام رحبة واسعة محدودة بحبال تمنع المارة من الدخول فيها والطريق للمتفرجين تنفذ بين هذه الحبال والخيام بشكل مستدير ورجال الحرس والضبط من العساكر خيالة ومشاة واقفون لحفظ الامن والنظام وتلك الخيام مفروشة بالبسطة النفيسة وغير ذلك من آلات الزينة الثمينة ويتخلل هذا الاحتفال من سمائه الى أرضه أسلاك كهربائية ذات أنوار مختلفة الالوان ومصابيح وقناديل فكانى به قد زفت اليه كواكبه ثم فى الساعة الرابعة بعد الغروب ابتدأت الصواريخ تلعب أدوارا عجيبة فى ذلك الفراغ وهى شهب نارية تصعد الى عنان السماء منها الاحمر والابيض والازرق والاصفر ومنها ما هو فى صعوده كالغصن فى الاستقامة ومنها ما يرسم منحنيات فى الهواء ومنها ما يخرج كشكل ثعبان هائل وهو يصفر ومنها ما تراه

كسهم فى السرعة حتى اذا ما وصل الى نحو ٥٠٠ مترا فى الارتفاع تفرقع كهيئة مدفع ثم تفرقعت أجزاؤه أيضا ومنها ما يطلب السماء بنغمة ظريفة رقيقة الحواشى وبعضها يعطى أسهما متتالية كسلسلة فى غاية من السرعة ومنها ما يعمل دويا كالرعد ومنها ما يخرج بالقرب من الارض كهيئة شجرة ذات أزهار ملونة تعبث بها الرياح فترى الصواريخ تتكلم صاعده ثم تنعكس بعضها صاعد وبعضها هابط مع السرعة التى تأخذ بالابصار وهكذا من المناظر الكهربائية والصواريخ النارية تلعب أدوارا يعجز عن الاحاطة بها وصف واصف

فكانت تلك الليلة من أبهج الليالى لما فيها من الزينة الغريبة وحضر هذا الاحتفال جمع لا يعلم عدده الا الله وتعطل مصالح الحكومة وغيرها لاجله اعتناء به والله يعيده على جميع المسلمين بخير وسعاده

مضت علينا أيام كالاعياد فى السرور بالديار المصرية ومكثنا فيها خمسة عشر يوما من (١٢) الى (٢٧) من ربيع أول

ففى صباح يوم الاحد الساعه ١١ (٢٧) من الربيع النبوى عزمنا على مغادرة مصر بعد أن قضينا فيها الوطر وجهزنا واجبات السفر فجاء لوداعنا حضرات الفضلاء المجاورون الجزائريون والتونسيون فابوا الا أن يشيعونا الى محطة السكة الحديدية بالرغم عن مزاحمة دروسهم فركبنا فى نحو ثلاث عربيات فلما وصلت بنا الى المحطة أجرنا بالقطار السريع بالدرجة الثانية وأجرة الركوب تقدم بيانها حين سفرنا من الاسكندريه وهى بعينها ثم تبادلنا تحية الوداع مع أولئك الافاضل والقلب مكتئب من ألم الفراق والعين تذرف بالدموع فصعب علينا فراقهم لما رأينا منهم من المجاملة والمحاسن السامية والنفس الى مثل هذه الجواهر أميل ويعز عليها مفارقتها ثم سافر القطار بعد أن مكثت برهة من الزمن مع ابن أختنا السيد الحاج محمد أوصيه بما فيه نجاح مستقبله وصلاح حاله مع الثقة به أنه على جانب عظيم من كمال العقل وثبات الصبر ثم ودعته مسلما الامر لله فى حفظه

وكان قيام القطار وقت الزوال الساعه ١٢ نهارا فوصل الى الاسكندرية الساعه ٣ ونصفا مساء ثم ذهبنا الى اللوكاندة التى نزلنا بها حين مجيئنا من الاقطار الشاميه ومكثنا بالاسكندرية أيضا خمسة أيام وزرنا فى هذه المرة زيادة عما تقدم ضريح (البصيرى) والشيخ (أبى العباس) والشيخ (المصورى * والنبى دانيال عليه السلام) وغير ذلك من المقامات المباركة غير ان صادفنا فى هذه المرة ان طقسها وهواءها متغير عما كان عليه من قبل وصار باردا مضراه ومركز الاسكندرية فى الشرق يشابه من كل وجه مركز طانجه فى الغرب ويمكن أن تفوق الاسكندرية عليها لحوز المصريين سباق التمدن والرقى ولمزيد فضلهم فى العلوم والنباهة فى الصناعة ولهذا نجد السواحين الاروباويين يحطون رحالهم بميناء هذه المدينة جماعات تلو أخرى كلما وفدت اليها الباخرات البحرية الآتية من الاقطار الاروباوية

وقد شاهدنا بمدينة الاسكندريه عددا كثيرا من مهاجرى طرابلس وبرقة وكذا من بنى غازى ودرنه والاسعار فى مدة اقامتنا بها مرتفعة الى درجة خرجت عن المعتاد بل ربما تفاحش الامر فى المأكولات والحبوب وذلك لان مصر زراعتها فى القطن وقصب السكر أكثر من زراعة الحبوب فيجلب لها الدقيق وما فى معناه دائما من الخارج وأغلبها من آسيا ولما كانت رحى الحرب دائرة على ساقها فى البلقان منعت الحكومة العثمانية الصادرات من ولاياتها ومن جملتها المواد المعاشية التى تجلبها مصر وأيضا ان الطرابلسيين فى حربهم التى لا تزال بينها وبين السنوسى محتاجون بالضرورة الى مؤنة وذخيرة ولا طريقة لهم لجلبها الا من مصر وأقرب مكان يفى بحاجياتهم هى اسكندرية فاجتمع هذان العاملان على تلك المدينة فاوقعاها فى الغلاء الفاحش

وممن اجتمعنا بهم فى هذه المدة بعض مهاجرى الجزائريين فاضافونا ضيافة فائقة لما أبدوه لنا من بسط اليد فى الاكرام الزائد

وتقدم فى الكلام على مصر ذكرت ان المصريين على العموم يحبون اللغة الفرنسوية وأهلها فوجدت سكان الاسكندرية أكثر شغفا بها ويظهرون الاخلاص من صميم أفئدتهم وخلوص اعتقادهم لهذه الامة الراقية فشكرتهم على ذلك وأثنيت عليهم ثناء يليق بهم

ولما تمت لنا السياحة بالقطر المصرى عزمنا على التوجه الى الاستانة العلية عاصمة دولة العثمانيين ومحط أنظار المسلمين فكانت الباخرة الرومانية أحسن من بقية المراكب البحرية فاخترناها للركوب فاجرنا فى الدرجة الثانية والمؤونة على الباخرة وأجرة النفر الواحد (١٢١) فرنك ففى يوم (٢٧) فبراير الساعة الرابعة مساء يوم الجمعة سافرت بنا الباخرة البخارية قاصدة مدينة (اسلامبول) فلما غادرنا اسكندرية ودخلنا فى أعماق المياه وهاج البحر وتحركت عواصف الرياح وتلاطمت الامواج واستمرت الحالة شديدة الاضطراب مدة ثمان ساعات ثم تحسن الجو ورجعت السكينة الى مجراها الطبيعى فحمدنا الله تعالى ولم تزل الفلك سائرة باسم الله مجريها ومرساها حتى الساعة (٢) بعد زوال يوم السبت (٢٨) فبراير فانكشفت لنا جبال جزيرة ثريت العالية فسارت وهى تخترق طريقها بين سلسلة تلك الجبال الشامخة مدة ثلاث ساعات ثم لما نفذت منها سائرة الى الساعة السادسة من يوم الاحد صباحا قاربنا جزيرة (بيرى) وهى جزائر بحر الارخبيل التابعة لليونان فدخلت سفينتنا مرسى تلك الجزيرة وهى متسعة جدا وعظيمة فى وضعها وجميلة فى منظرها فوجدنا بها من البواخر الحديثة عشرة منها سفينتان من الطرز الحديث والباقى من الشكل القديم كما أنه وجدنا أيضا نحو (٤٥) مركبا من المراكب التجارية فكانت شواطىء تلك البلدة فى غاية من البهجة بهذه السفن فسألنا عن وجود المراكب البحرية فى مثل المدن التجارية فقيل لنا ان الاحواض التى هى خاصة بها قريبة من شواطىء هذه البلدة ثم نزلنا للتفرج

على المدينة فالفيناها صغيرة وبناؤها لا يزيد على طبقتين وليست ذات أهمية ولما كانت عاصمة اليونان (أتينه) قريبة بمقدار عشرين دقيقة فى السكة الحديدية رغبنا فى التمتع بمناظرها فركبنا فى القطار الحديدى ودفعنا الاجرة ذهابا وايابا فرنكا واحدا فقط لقرب المسافة فصادف دخولنا لهذه العاصمة يوم الاحد ولذلك ألفيناد واوين الحكومة ومحلات الاشغال والتجارة كلها مقفولة وبعد النزول شرعنا فى الجولان والتفرج على مبانيها وقصورها ومتنزهاتها وآثارها

فهذه المدينة واقعة بين جبلين فى مكان منخفض تكثر الحرارة فيها وعدد سكانها خمسون ألف نسمة ومبانيها تجارية وأهلها لهم مهارة كبيرة فى البحر ولها شارع طويل يعرف بسوق (هرمس) يبتدئ من طريق (بيريرا) وينتهى بالمنتزه الكائن أمام سراية الملك وقصر ملك اليونان مبنى من الاحجار المرمرية على ساحل جبل وله قاعة ظريفة ويرى من الخارج على شكل بسيط ليس من الابنية الضخمة وأمامه حديقة للنزاهة مغروس فيها أشجار مرتفعة ويوجد أيضا فى بعض شوارعها أشجار مورقة طول السنة ومبانيها معتدلة يظهر من حركة رجال البوليس انها منتظمة كما ان أهاليها ذو وفطانة وآداب وظرافة حيث اننا كلما سألناهم عن أحوالهم نجد منهم اقبالا زائدا لمجاوبتنا بأسلوب لطيف ولسان ظريف غير انه لعدم اعتيادهم رؤية الملابس العربية خصوصا ملابس المغاربة يتعجبون منا ويقفوا أثرنا فى رحبات تلك الشوارع أينما توجهنا وكلما انتقلنا لا فرق فى ذلك بين رجالهم ونسائهم وأما البنون والبنات فلا تسئل ومع ذلك لم نر منهم ما يخل بالآداب والمروءة ولم نسمع منهم كلمة تحط بشرفهم ومثل هذه الافعال تقع من الاروباويين كثيرا سيما الجهات البعيدة الغير المالوفة باحوال العرب وهذه المدينة لا يتمكن الغريب أن ينال لذة النزهة والفرجة فيها لقلة سكانها من جهة وشدة حرارتها من جهة أخرى زمن الصيف وفى الشتاء بالعكس يشتد البرد ويقال ان فيها من آثار قدماء اليونان ما يعجب الناظرين ويسر السواحين ونحن لضيق الوقت لم

نستطع الوقوف عليها ومهما كان من الامر فهى لا تخرج عما بيناه من آثار ايطاليا وقدماء المصريين

فلما مضى علينا ساعتان بهذه المدينة رجعنا الى (بيرا) ثم صعدنا باخرتنا وقت الزوال وفى الساعة الثالثة مساء يومنا غادرت السفينة المدينة وصوبت وجهتها الى الاستانة العلية وهى تمخر فى اليم وسط جزائر متعددة ذات جبال شامخة وطرق السفن فى بحر الارخبيل الذى هو بحر اليونان مشهور بالصعوبة لما فى داخل البحر من جبال حجرية وقد لا تهتدى البحارة الى معرفتها فتقع مراكبها فى العطب المؤدى الى الهلاك والعياذ بالله

ولم يزل المركب سائرا بنا فى حفظ الله الى الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين افتتاح مارس فقارب من بوغاز الدردنيل الواصل بين بحر (مرمره) وبحر (الارخبيل) وهذا البوغاز من أعظم حصون البحرية فى مملكة العثمانيين وأكبر ثغورها وعليه مدار حفظ الاستانة من الاجانب وله وقائع حربية مشهورة امتلأت منها بطون التواريخ وكلها حفظت للعثمانيين الفوز والنجاح وخلدت لهم ذكرا حسنا وقد اعتنت به ملوك آل عثمان من زمن بعيد وشيدوا فيه حصونا قوية ذات باس شديد وزاد اهتمام المتاخرين من رجال الاتراك بهذا البوغاز فاكثروا فيه حصونا مانعة على خطوط هندسية يحمى بعضها بعضا وأوسعوا فيه قلاعا ضخمة ذات مدافع هائلة فى الضخامة والمتانة وشيدوا فيه ثكنات للعساكر على طول شواطئه وهو جميل المنظر حيث ان السفينة قد درست اتجاه قرية تسمى (شنقله) وبعد ذلك دخلت فى مضيق (الدردنيل) ومرت على مدينة (غاليبولى) فى الساعة (٩ ½) وهى أيضا من جملة الحصون التابعة لهذا البوغاز وبها مدافع الحصار صوبت أفواهها الى جهة البحر وفيها جبال معتدلة وضواحيها ذات أراض زراعية وبساتين جميلة وبعدها مررنا على جزيرة (سارنو) وهى بداية بحر مرمره ونهاية بوغاز (البوسفور) الواصل بينه وبين البحر الاسود

فلما دخلنا هذا البحر وخاضت السفينة البخارية فى أعماقه علمنا أننا

على مسافة قريبة من الاستانة العلية ولم تمض الساعة الخامسة مساء يومنا أول مارس حتى كنا بمقربة من شواطئ العاصمة الاسلامية ثم أخذت السفينة تؤدي التحية الملوكية بمزمارها فولجت المرساة وهي ذات اتساع عظيم ممتدة من جميع جهاتها وهي في اتساعها طبيعية وفيها من السفن التجارية والمراكب النقالة والقوارب البخارية عدد لا يحصى ويدخلها في اليوم والليلة من هذه الاساطيل العديدة ما يزيد في قوة مالية العثمانيين بسبب الرسوم التي تأخذها على المرور على (البوسفور) ولها أهمية عظمى في التجارة البحرية ثم نزلنا الى الشاطئ بعد العبور على جسر عظيم وكانت الطريق نافذة على الديوان لاجراء التفتيش حسب القوانين الدولية من غير تفرقة بين الاجناس فلما مررنا عليها ونحن مع جموع من نزلاء المراكب فأمر مدير الديوان أن لا يدخل أحد المدينة الا بتقديم رخصة السفر لمصلحة الديوان وكانت رجال الحفظ والأمن من البوليس واقفين بالابواب عليهم مهابة جليلة ويلوح من جبينهم الوقار والبسالة فقدمنا أمتعتنا لاجراء التفتيش بعد أن اطلعناهم على اجازة السفر ثم خرجنا من الديوان وعبرنا البحر أيضا على جسر عظيم وتوجهنا الى اللوكاندة المسماة (مسرة اوتيل) المشهورة باسلامبول وأجرة النزول بهذا المكان فرنكان اثنان عن الشخص الواحد في اليوم والليلة وهي في غاية من النظافة والبهجة وعليها رونقة تسر الناظرين وهواؤها صحي يوافق مزاجنا فضلا عن اتقان مبانيها ومتانة طبقاتها وتحتها قهوة فاخرة يجتمع فيها ضباط الجيش ذوو الرتب العالية وكذا أعيان البلد ذوو المقامات السامية

﴿ أصل الاتراك العثمانيين ﴾

الاتراك نوع من الموغول الذين هم قبائل متعددة يسكنون أواسط آسيا وكانت لهم دولة ذات بأس وشدة ومن ملوكهم (تيمورلنك) الشهير وأما دولة العثمانية فقد اسست في سنة ١٢٥٨ ميلاديه وكان ملكها وقتئذ (عثمان بن ارطوغرول) واليه تنسب العثمانيون وتولى بعده (أورخان) وبه اتسعت المملكة ونظم جيشا كبيرا ومنه طائفة الانكشارية

المكونة من شبان المسيحيين الذين أخذوا أسرى في الحروب وربتهم الدولة تربية اسلامية عالية وبهم اتسعت أطراف المملكة وامتد نفوذها وفي أواخر أيام (أورخان) تمكن الاتراك من وضع أساس دولتهم في قارة أوروبا باستيلائهم على مدينة (غليبولي) وغيرها من شواطئ بوغاز الدردنيل وبعدها تولى السلطان (مراد) الاول في سنة ١٣٢٥ ب م وفي أيامه فتحت مدينة (ادرنه) وغيرها

وفي سنة (١٣٨٨) أدخل بلاد البلغار الى حكمه وهزم (الصرب والمجر) في سنة (١٣٦٣) وفي هذا الوقت اجتمعت الولايات الاوروباوية الشرقية على محاربتهم فهزمهم في مدينة (قوصره) وضم بلاد الصرب الى حكمه

وتولى الملك بعده ابنه بايزيد وفي أيامه اجتمعت أوروبا وقام بينهم البابا الرئيس الديني خطيبا يحثهم على محاربة المسلمين وقتال العثمانيين الذين يريدون أخذ أوروبا بجملتها فحشدوا جيشين عظيمين فاستردوا كثيرا من البلاد التي دخلت تحت العثمانيين وكان السلطان وقتئذ غائبا بآسيا ولما بلغه الخبر جرد قوة عظيمة من الجنود فهزمهم واستولى على بلاد اليونان وقصد فتح قسطنطينية وحاصرها ثم رجع لرد هجمات تيمورلنك الموغولي وتولى الملك السلطان محمد الاول في سنة ١٤١٣ ب م ثم مراد الثاني في سنة ١٤٢١ ب م وحاصر مدينة قسطنطين وكاد يفتحها لولا اضطرابات داخلية حملته على تركها

﴿ فتح قسطنطينية مدينة اسلامبول ﴾

ولما توفي مراد الثاني تولى الملك بعده ابنه محمد الثاني الفاتح وكان عمره خمسا وعشرين سنة فاخذ يستعد لفتح قسطنطينية وجهز جيشا يبلغ سبعين ألف مقاتل وأسطولا يبلغ نحو ثلاثمائة وعشرين سفينة حربية وحاصر المدينة برا وبحرا وكانت محصنة بالبحر من جهتين والاسوار المتينة من جهتين وفيها ملكها قسطنطين قيصر الروماني الشرقي آخر ملوك دولة الرومان

الشرقية و بعد أن حاصرها نحو سبعة أسابيع تهدم جزء من سورها فهجم السلطان محمد الفاتح عليها بجيشه ودخلها عنوة فى فجر يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ب م وذهبوا فى الحال الى كنيسة أياصوفيا وصلوا فيها شكرا لله ومن ذلك الوقت انقلبت مسجدا و بقيت كذلك الى الآن

(مدينة اسلامبول)

وكانت تسمى فى اللغة الرومانية « استان بو ليبس » بمعنى المدينة الكبرى ولما افتتحها المسلمون تصرفوا فى اسمها كما ترى وأول من أسسها قسطنطين الملك الرومانى فى سنة ٣٣٠ بعد الميلاد وهى مشيدة على جبال سبعة متفرقة عن بعضها بواسطة أودية ولها أسوار قديمة متينة وعدد سكانها الآن نحو ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة وهى منقسمة الى قسمين يفصلها خليج يعرف بقرن الذهب وعليه قنطرتان ما بين المدينة و (غلطه) وسكانها يتكلمون باللغة التركية و بعض اللغات الافرنجية وأما العربية فقليل من يتلفظ بها تكلفا ولا يوجد فيهم من يحسنها الا من خالط العرب وهاجر الى جهة الشام ومصر

وفى صباح يوم الثلاثاء ٣ مارس أردنا التفرج على أسواق دار السعادة فذهبنا الى سوق فشرشه فوجدنا فيه المحلات الكبرى والمخازن المتسعة والدكاكين المتعددة وفيها من البضايع الثمينة والاقمشة الحريرية والمعامل الصناعية مع اختلاف أشكالها كمعمل النسج والطرز ومعمل الغزل والحديد والاخشاب ومعامل تحت المرمر والاسطوانة الرخامية وكذا دكاكين الجواهر والصاغة والحرف والصناعة وله سقف يردعنه المطر فى الشتاء ومحصور بين أبواب تقفل ليلا فكان ذلك السوق زبدة الاستانة لكونه جامعا لكل من يدخل تحت رغبة الغنى والفقير وهو فى كبره واتساعه ورواج بضائعه وشهرته قديما وحديثا يفوق أسواق الدنيا لاحتوائه على مزايا قد انفرد بها وممن اجتمعنا به فى هذا السوق حضرة الفاضل السيد على البرج من أهالى جربه وتاجر من تجار الاستانه فاستقبلنا بترحاب زائد وفرح

بنا كثيرا كما اننا سررنا به جدا حيث اجتمعنا مع فاضل لبيب مثله فى وقت نحن فى أشد حاجة اليه و بعد أن دارت تحية الوداد وأخذت فى أنفسنا ما آخذ العشق من المعشوق قام حفظه الله معنا وسرنا نتفرج على بقية السوق من مخازن الابسطة والامتعة المنزلية والحرف الدقيقة كمعامل النحاس المتكاثرة ومعامل الحلويات المتنوعة وهو فى مقدمة ما يرينا مالا نعرفه من اصطلاحات تلك المدينة وطبائع تلك الخليقة واجتمعنا أيضا بواسطته مع حضرة الفاضل المحترم يحيى الديب وهو من وطن واحد مع السيد على وكلاهما من الفضلاء الكرام ومن حسناتهما أن أرسلوا احدا معنا يساعدنا فى التفرج على الاستانه

ولما كانت مساجدها من أعظم ما أسس على سطح الارض من الجوامع رغبنا فى زيارة بعضها وهى الشهانيه منها لمزيد أفضليتها على غيرها من حيث المبانى العتيقه وتقادم الزمن وذلك كجامع (أياصوفيا) الشهير وكان قبل الاسلام كنيسة من أعظم كنائس الرومانيه وقد أسسها (جوستينيان) الملك الرومانى فى سنة ٥٤٨ للميلاد وتحولت مسجدا فى سنة ١٤٥٣ هجريه فى أيام السلطان محمد الفاتح المتقدم وله قبة مرتفعة بين أربع منارات مستشزرات وقبتان أخريتان احداهما شرقى المسجد والاخرى غربيه وله أبواب خارجيه ضخمة من النحاس شرقا وجنوبا وشمالا توصل الى داخل صحن يبلغ طوله ستين مترا وعرضه عشرة أمتار وله أبواب أخرى داخليه خمسه فى الحائط الغربى وتسعة فى الحائط الشرقى منها باب عظيم من النحاس منقوش بالنقش النفيس وطول المسجد من الداخل احد وثمانون مترا وعرضه سبعون مترا وارتفاع قبته ٥٧ مترا ويحيط بهذه القبة على شكل مستدير أربعة وأربعون منفذا وتحتها أربعة أعمدة جسيمه وفى يمينها ويسارها أعمدة أخرى من الرخام الاخضر النفيس قد كانت قديما فى هيكل (افيس) المشهور

ومنبره فى غاية من الدقه والاتقان فى الصناعه و بجانبه الخلوة المختصه

للسلطان وفيه كثير من النقوش الذهبيه ومكتوب عليه آيات قرآنيه وأحاديث نبويه بخط جميل لا نظير له فى العالم لان الخط العربى قد انفرد به الاتراك لاعتنائهم به حتى ان التلميذ يستغرق فى تعليمه من أربع سنين الى ست سنوات

ومنها جامع (البايزيديه) وهو خلف السوق الكبير ينفرد عن غيره بمنارتين ظريفتين ومنها جامع السليميه وهو الذى أسسه السلطان سليم الاول وله منارتان جيدتان وقبة واحدة ومنها جامع السليمانيه له أربع منارات عاليات وقبة كبيرة واثنا عشر قبة صغيرة وهو مزين جدا بالزخارف الظريفه وقد زرنا غيره هذه المساجد أيضا وكلها فى النهايه وكمال الصناعة ومفروشة بالرخام ومسقوفه بالواح من الرصاص وتعداد المساجد بالاستانة ثلاثمائه وثلاثه وخمسون جامعا ولا غرابه فى ذلك لانها عاصمه المسلمين وقد تداولت عليها الملوك والسلاطين وأدينا تحيه المسجد عند الدخول فى كل جامع وقرأنا ما تيسر من القرآن ودعونا الله تعالى بما فيه سعادة الدنيا والآخرة ثم رجعنا الى اللوكاندة مسرورين بما رأيناه

وفى صباح اليوم الثانى خرجنا لزيارة بعض القرى منها قريه (بچقطاش) فهى تشتمل على قصر ظريف يسمى باسمها وعلى ضريح (خير الدين) ومنها قريه (بيرا) فهى مشيدة على جبل مشرف وهى ماوى للقناصل والاوربا ويين وقريب منها بساتين ظريفه تذهب الناس اليها للنزاهة فى كل يوم ولشم نسيمها والتغذى بمناظرها وأزهارها هذه القرية من أشهر قرى المدينه لانها مركز التجارة وبها كثير من التياترات ولوكاندات وفيها حمامات نظيفه وخدمتها من الشبان البارعين فى الجمال والحذاقة والكمال

ومنها قريه (أيوب) سميت باسم أبوب رفيق السلطان محمد الفاتح الذى مات فى مقدمة هجوم المسلمين عند افتتاح هذه المدينة وقد ابتنى له السلطان محمد الثانى الفاتح جامعا وهو المسجد الوحيد الممنوع دخول المسيحيين اليه بالكلية وذلك لان فيه سيف عثمان الذى يتقلده كل

سلطان عند جلوسه على كرسى الخلافة وفيه قبر شيخ الاسلام وحوله قبور للوزراء والامراء ومنها قرية الطوبخانه فهى قرية جميلة وفيها معمل المدافع وجامع ظريف

وزرنا أيضا كثيرا من القرى يطول شرحها وهى لا تخرج عما بيناه وكذلك تفرجنا على دواوين الحكومه مثل مجلس المبعوثان ومجلس الاعيان والقصور الشهانيه الملوكيه والباب العالى ويلندز

ومن أعظم مناظر الاستانه شواطئ البحر لبوغاز البوسفور المعوج كالثعبان الذى يبلغ طوله نحو خمسة وثلاثين كيلومتر والشاطى الايمن يعرف بالاوروباوى والايسر بالاسياوهذه الشواطى والسواحل مزينة بالبساتين والقصور والرياض ما يجعل القلب مدهشا لنضارتها وحسن رونقها ومتصلة أيضا بسلسلة من القرى على كلا الشاطئين ويوجد فى هذا البوغاز سفينة بوخاريه لخصوص نقل الركاب من قرية الى أخرى فى كل وقت وحين

ففى يوم الاربعاء قصدنا زيارة خطوط البوسفور فركبنا فى السفينة وهى تمر على كل قريه وتقف امامها فيهبط قوم ويصعد آخرون وهكذا الى أن تطوف تلك السفينة على الشاطئ الايمن والايسر لبوغاز البوسفور الفاصل بين حدود آسيا وأوربا فشاهدنا ذلك اليوم من المناظر الطبيعية والآثار الجميلة والنظامات البديعة ما جعل القلب يدهش من العجب ويذوب من الطرب وذلك لما بلغنا ان مولانا خليفة المسلمين جلالة السلطان محمد رشاد الخامس سيؤدى فريضة الجمعه فى مسجد بچقطاش الشاهانى بميدان يلندز وقلنا ان من أحسن الصدف الالهية الآتية من غير سبق موعد ولا ضرب أجل هى ما كانت على جانب عظيم من الاهمية مثل ملاقاة الخليفة والاجتماع معه بمكان يستوى فيه الوضيع والرفيع (فى بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه) وبمساجد أسست على التقوى يعمرها من آمن بالله واليوم والآخر فجئنا لمشاهدة هذا الموكب الملوكى والاحتفال الشهانى فالفينا بجانبى الطريق الجنود الباسلة عليهم وقار عظيم مصطفين بنظام وترتيب بلغ مبلغا من المهابه

المشوبة بالحفاوة والظرافة تعجز العقول عن الاحاطة بوصفها ثم عند قرب الزوال جاءت العربية الناقلة لجلالة السلطان يتقدمها فرقة من العساكر الخيالة ويقفو أثرها فرقة أخرى ومعهم موسيقية شهانية تؤدى تحيتها بنغمات ظريفة وألحان عجيبة والناس واقفون على حافتى الطريق كلما مر على جمع منهم ارتفعت أصواتهم كشخص واحد قائلين وليعش السلطان وليحيي (محمد رشاد) والعساكر تدعو بالنصر وبالعزة لجلالته وهو ومن معه من الوزراء العظام والامراء الفخام يردون على تلك الجموع تحياتهم بالاشارة وترى الناس فى ذلك الموكب السلطانى سكارى ومن الوقار والدهشة حيارى فمنهم من تذرف عيناه بالدموع ومنهم من لا تملك نفسه فيغيب عن الوجود والخلق فى ذلك اصناف متفاوتة فى رقة القلب والعطف والحنانة وشدة الشغف والشفقة ثم تشرف بالدخول الى المسجد ونحن قد كنا فيه فصلى تحية المسجد ثم جلس على الارض كاحد الناس لان هذا المكان بيت الله وحرماته يستوى فيه الوضيع والرفيع كما تقدم ثم تليت آيات الله وقرئت على مسامعنا بالحان لم نسمع مثلها لما فيها من مزيد الاعتناء بالضبط والاتقان فى احكام تلك القراآت السبعية ثم صلينا صلاة الجمعة بعد خطبة بليغة وجيزة مشتملة على وعظ رقيق بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية ثم رفعت الاصوات داعية بالنصر لجلالته والقلوب خاشعة

وبعد ذلك ركب والجنود مه على النظام السابق وتفرقت الجموع حينئذ فاعجبنا ما رأيناه وهو ألذ ما وقفنا عليه فى هذه السياحة بعد الحرمين الشريفين ومما زرنا أيضا فى هذه القرية نبى الله (يوشع) وكذلك ركبنا فى هذه السفينة البوغازية البوسفورية فى يوم آخر للنزاهة فمررنا على قرية تسمى (سريار) ظريفة جدا لما فيها من المبانى الجسيمة والقصور الفخيمة والبساتين الجميلة فنزلنا فيها وألفينا بها مسجدا مشيد الاركان بديع البنيان كامل الاتقان فصلينا فيه الظهر والعصر وهذه القرية وان كانت صغيرة لكنها حلوة النضرة وماؤها عذب لذيذ وشاهدنا أيضا كثيرا من القرى فى شواطئ هذا البوغاز

المنيع وكلها متقاربة فى الجمال ومتساوية فى المحاسن ولذلك اقتصرنا على ماشرحناه

وفى الاستانة كثير من المدارس الابتدائية والثانوية والعالية مثل مدارس الفنون والحقوق والمعلمين والحربية والصنائع والهندسة وكلها من المدارس العليا فيتخرج منها أبطال العلم والفلسفة غير أن التدريس باللغة التركية والاتراك فى اخلاقهم قد جمعوا بين مدنية العرب والاروبيين زيادة عما هم مشهورون به من الفطنة والذكاء وحسن التدبير وسياسة الامور وادارة الشؤن وفى دار السعادة أيضا عدد لا يستهان به من المعامل الجليلة كمعمل المدافع ومعمل السلاح ومعمل البارود ومعامل النسيج والورق والصابون والكبريت والاقمشة ومعامل الحديد والاخشاب ومعامل السفن وهم اليوم ساعون فى توسيع نطاق هذه المعامل بدرجة أقوى وتبديل القديم منها بالطراز الجديد

ثم فى يوم السبت (٧) مارس الساعة السابعة ونصف صباحا أردنا الاطلاع على مدينة أدرنه فركبنا فى السكة الحديدية التى تربطها مع الاستانة باجرة سبعة عشر فرنك عن النفر الواحد ذهابا فقط ومثلها ايابا ولا يجمع فى الدفع بينهما وقام القطار بنا فى الوقت عينه وهو يخترق بساتين وقصورا وحدايق ذوات الزهور الكائنة بضواحى المدينة الجميلة ونحن نتمتع بتلك المناظر الطبيعية والبقاع النضرة

ومما شاهدناه مدينة (شاطلجه) البعيدة عن الاستانة بخمس محطات وهى البقعة التى اشتد فيها الحرب ودارت رحاها بين الاتراك والبلقانيين وتعد من الحصون الثانية بعد مدينة أدرنه لحماية العاصمة ففيها من القلاع والحصون على خطوطها الممتدة طول طريقها عدد كبير

وقد أفادت فائدة عظمى فى الحرب البلقانية حيث أوقفت هجميات الاعداء بالرغم عن وفرة عددهم وعددهم فى حين ان جيوش العثمانيين متفرقة فى مواضع كثيرة فجاهدت أبطال هذه الجنود جها داخلد لها ذكر احسنا

وزرنا قبور هؤلاء الشهداء وكانت أراضى تلك المدينة تحفها المهابة والعظمة وهى أرض زراعية وذات مروج ومياه تتدفق من كل مكان والانهار والاعين جارية والاودية مملوءة بالاشجار المثمرة وكذا السهول وبالجملة فتركية أوروبا ثروتها قوية جدا لتقدم زراعتها وصلاح أراضيها للغرس والحراثة من غير تفرقة بين سهول مرتفعة وأودية منخفضة فكلها تنبت ذهبا وفضة وهى خصبة على الدوام وتقدر محصولاتها سنويا بملايين عديده من الفرنكات

وأما أدرنه فبعيدة عن شاطلجة بخمسة عشر محطة وقد وصل القطار اليها الساعة الثامنة مساء يوم نافزلنا بهذه المحطة وكانت بعيدة عن المدينة بنحو ثلاث كيلومتر ويوجد بها كثير من العربيات لنقل الركاب فاخذنا عربية بالخصوص والطريق مفروشة ومعدة لسير العربيات وهى على خط مستقيم حتى وصلنا المدينة وقصدنا اللوكاندة المعروفة (باوتيل اسلامبول) باجرة الشخص الواحد فرنك ونصف

وهذه المدينة قد افتتحها السلطان (مراد الاول) فى سنة (١٣٦١) وجعلها عاصمة مملكة آل عثمان وذلك قبل فتح مدينة اسلامبول واستمرت مركز السلطانية الى سنة (١٤٥٣) زمن (محمد الثانى) الملقب بالفاتح لافتتاحه مدينة (قسطنطين) واتخذها حينئذ عاصمة ونقل كرسى الخلافة اليها ومدينة أدرنه هى الحصن المنيع الوحيد لوجودها فى مكان طبيعى يناسب ذلك

وتداولت عليها الملوك والسلاطين وأهميتهم تزداد فى كل وقت بتشييد الحصون القوية والقلاع المنيعة حتى حصنوها بحالة تعجز دول عظمى فى فتحها وانما دخلها البلقانيون فى الحرب الاخيرة لضيق الحصار عليها ونفاد الزاد عن أهلها حتى أدت الحالة الى أكل لحوم البهايم وبلغ ثمن الصفيحة من الغاز خمسة وعشرين فرنكا ولما طال الحصار وضعفت حاميتها اضطروا الى التسليم بعد جهد جهيد فشهد بشجاعتها كتاب الاوروباويين

وقد علمت ان جنود العثمانيين موزعة على نقط حربية متعددة ولما

جمعوا شملهم وجردوا جيشا عرمرما مشاة وفرسانا تحت قيادة (أنور باشا) ناظر الحربية الآن وحملوا على المحتلين فيها حملة الاسود واحاطوا بهم احاطة الهالة بالقمر استردوها مرة أخرى ورفعوا على أسوارها أعلاما عثمانية

ثم فى صباح يوم الاحد قصدنا زيارة المساجد الفخيمة المؤسسة على التقوى وهى عتيقة وقد أنشأتها ملوك آل عثمان يضيق المقام عن بسطها وقد بلغت فى المتانة وجمال الهيئة واتقان الصناعة والنقوش الغريبة والمنارات العديدة مبلغا يعجز قلمى عن وصفها وهى أيضا فى العظمة والجلالة والمهابة فريدة لا يشاركها غيرها فى أوصافها فمنها مسجد السلطان (سليم) وله ثلاثمائة وستون منفذا بعدد أيام السنة ولعمرى انه المسجد الوحيد ولو لم يكن غيره لكان هو كافيا فى اثبات القوة وعزة النفس لملوك آل عثمان ومن اضرابه مسجد السلطان (محمد) ومسجد السلطان (مصطفى) وكذا الباقى وتفرجنا أيضا على دواوين الحكومة كالمحاكم الشرعية والاهلية والمجلس البلدى

ومدينة ادرنه يشقها نهر كبير والمواصلة بين اطراف البلد بواسطة جسور وقناطر جسيمة يبلغ طول الواحدة مائتين وخمسين مترا فى عرض كاف لمرور الناس والعربيات. وأراضيها زراعية وصالحة لكل النباتات والاشجار المثمرة وثروتها لا توازى أهميتها لانها حصن من حصون الاستانة بل هى الركن الاعظم فى رد هجمات الاعداء وفيها مدارس حربية زيادة عن مدارس التعليم الابتدائى غير ان اعتناء الحكومة بها من وجهة الحربية أكثر من شؤون الادارة وفيها كثير من قبور السلاطين وآثار القدماء من الملوك لا تزال فى أعين العثمانيين كسواد العين فى العزة ولما أتممنا السياحة بها قصدنا الرجوع الى الاستانة فركبنا القطار الساعة ١٢ ونصف مساء ليلة الاثنين ووصلنا دار السعادة الساعة العاشرة صباح يوم الاثنين ٩ مارس وفى يوم الثلاثاء توجهنا للتفرج على دار الآثار (انتيكة) وهى تقرب من آثار قدماء المصريين وفى يوم الاربعاء كانت نزهتنا مقصورة على بعض الامكنة فى

المدينة وفى يوم الخميس رغبنا فى مشاهدة الحربية ومعاينة الجيوش ورجال العسكرية فذهبنا صباحا ولما كنا بمقربة من الثكنات العسكرية ابتدأنا نلمح حركات العساكر وتمريناتهم فكان كلما مرّ بنا أحدهم يسلم علينا منحنيا برأسه وحيانا بما يناسب مقامهم من الادب فبينما نحن نتراوح امام نظارة الحربية اذ بضابط من ضباط الجيش ينادى باعلى صوته و بلفظ عربى فصيح وهو يقول «تفضلوا ياسادتى الضيوف» فتعجبنا منه واستغربنا نداءه حيث اننا فى مكان حربى ولا معرفة لنا سابقة معهم ومما زادنا غرابة ان كلمنا باللسان العربى ونحن قد شاهدنا من عامتهم عدم معرفتهم اياها فاجبنا دعاءه وتقدمنا اليه وقلنا عسى ان يكون وراء هذا النداء خير ثم ابتدأنا بالسلام وقلنا له حبا وكرامة لما دعوته فرد علينا السلام متبسما قائلا «أترغبون مقابلة حضرتلرى افندم ناظر الحربية أنور باشا» فقلنا له نرغب ذلك بكل مودة وسرور فاجابنا بان عطوفة أنور باشا هو الذى أمر بحضورنا لديه وكان قد لمحنا حين مروره ثم تقدمنا جميعاً الى داخل النظارة فأجلسنا بمقصورة الانتظار ومحل جلوس الوزراء والاعيان قالفيناها مفروشة بأنواع الابسطة الثمينة وفيها من الكراسى المزينة بالذهب والفضة وكذا الستاير الحريرية من أفخر الحرير وغير ذلك مما يدهش القلب و ياخذ بالابصار ولم يمض علينا ربع ساعة ونحن نتعجب من تشييد هذه الدار ومبلغ بهجتها فى الزينة حتى صدر الامر العالى بالدخول لدى جناب الوزير الفخيم وناظر الحربية «أنور باشا» ولم نطرق الباب حتى استوى قائما لمقابلتنا وحيانا بألفاظ عربية فصيحة رقيقة بليغة تناسب مقامه السامى متواضعا فى مقاله مع ما عليه من عزة النفس وسلطان القوة فحينئذ تقدمت خطوة الى الامام فقلت له بعد أداء التحية الواجبة «مولاى وسيدى عطوفتلو أنا ورفقائى نشكركم من صميم قلوبنا وخلوص اعتقادنا لما أنعمتم به علينا من المنحة العظيمة بدعوتكم السامية لنا بالتشريف مع جلالتكم وأكثر ثنائى على فخامتكم لما أبديتموه لنا من العطف نحونا كما اننا نعلمكم ان قلوبنا مفعمة بالسرور

وانفسنا تكاد تطير فرحا من الحبور ولا نزال ندعو لكم بدوام مجدكم السامى محفوظا بالعزة والنصر باقين بقاء الدهر) فسر كثيرا لهذا الخطاب لانه يتقن العربية جيداً فامرنا بالجلوس ثم سالنا عن بلادنا ومن أين جئنا والى أين نذهب وما نريده من الاستانة فاجبناه عن أسئلته الجامعة لحالة الغريب وأخبرناه باننا لما قضينا الوطر من أداء فريضة الحج رغبنا فى زيارة الاستانة ودار الخلافة لنتبرك بالآثار الملوكية لانه ليس راء كمن سمع ثم سألنا عن حالتنا مع دولتنا الفرنساوية فافدناه باننا معها دائما فى أرغد عيش وهناء وهى لا تزال تراعى آداب المسلمين وشريعتهم وعوائدهم وتحترم مساجدهم وتسعى فى تعليمهم وأخذ هو يثنى عليها بانها دولة بلغت شأوا بعيدا من العلم والآداب وتربية النفوس والاخلاق فضلا عن تقدمها فى المصانع والمتاجر وأشار علينا بالتعليم على نمطها والاقتداء بها بما فيه صلاح الدنيا فشكرناه على عظيم نصحه وكان يكلمنا بلسان عربى ووجه بشوش وخاطر منشرح وأطال معنا البسط فى الجلوس بالرغم عن مزاحمة أشغاله ثم أراد أن يامر بعض الضباط ليكون معنا مدة اقامتنا بالاستانة للمحافظة علينا وتلك عادة جارية فى الحكومات مع ذوى المنامات العلية فشكرناه على مزيد اعتنائه بنا وعلو همته وغاية تواضعه وعلى جميل أخلاقه وقلنا لا نحتاج الى ذلك لوجود من يقوم بنا ثم خرجنا وهو حفظه الله يشيعنا باطيب الكلام الى باب النظارة فودعنا ونحن متعجبون من هذه الآداب والمحاسن

وفى صباح يوم الجمعة قصدنا زيارة «أبى أيوب الانصارى» وضريحه بقرية بعيدة عن المدينة بنحو ساعتين فى الطريق البحرى بواسطة السفن البخارية فركبنا سفينة لمشاهدته فوصلنا بنا وقت الزوال والمؤذن ينادى حىّ على الصلاة على المنارة فصلينا صلاة الجمعة مع جموع لا يحصى عددها يجتمعون بقصد التبرك بمسجد هذا الصحابى الجليل و بعد انتهاء الصلاة تقدم الامام الى ضريحه فدعا له بلسان تركى والخطبة كان يؤديها بلسان عربى ثم رجعنا الى المدينة فدخلناها قبل الغروب بساعتين وأهالى الاستانة مع

كونهم لايحسنون اللغة العربية يميلون الى الغريب ويجاملونه بكل اخلاص ولما تمت لنا السياحة بمدينة اسلامبول وعزمنا على مغادرتها وكان رفيقنا ومحبنا حضرة الفاضل الحاج عيسى بن موسى ملازما لنا من يوم اجتماعنا معه بالمدينة المنورة الى الاستانة وهو يدرك الوقوف بعرفة فى هذه السنة وفاته الحج فاختار البقاء بمصر والحرمين الى السنة المقبلة لاداء فريضة الحج وشق علينا فراقه لما عهدناه فى حضرته من حسن المعاشرة ولطف المجاملة فودعناه بالرغم عن رغبتنا مبتهلين الى الله تعالى ان يحفظه بقية سفره حتى يرد فى مأمن الى أهله

ففى الساعة السادسه ونصف مساء ليلة (١٣) مارس توجهنا الى ادارة السكة الحديدية وأخذنا تذاكر السفر الى باريس وكانت أجرة النفر الواحد فى الدرجة الثانيه ٢٠٧٫٥٠ مائتين وسبعة فرنك وخمسين سانتيما ويعطى للمسافر أجل هذه الرخصة عشرة أيام بحيث يمكنه المرور على بعض الامكنة فى طريقه فركبنا القطار فى الوقت المذكور المحدد وسافر معنا حضرة الحاج عيسى أيضا فودعنا مرة أخرى مفوضين الامر لله فى حفظه ورزقه الثبات والصبر ثم قام القطار مغادرا الاستانة والمسافة بين مدينة اسلامبول وباريز بطريق فيانا عاصمة النمسا تبلغ ٣١٥٦ كيلومتر يقطعها القطار فى ظرف ٨٠ ساعه واصطلاح هذه القطارات العموميه التى تجمع بين دول كثيرة فى المراقبة ان كل أرض تمر عليها ذهابا أو إيابا تراقبها رجال من الدولة المحليه ولذلك لما خرجنا من الاستانة كان معنا ملاحظ عثمانى ولما دخلنا حدود البلغار انتهت ملاحظته وخلفه مرافق آخر بلغارى ولما وصلنا حدود صربيا خلفه أيضا ملاحظ صربى وهكذا مع النمسا وغيرها

ولنذكر بعض المحطات التى وقف القطار فيها كان القطار أمام أدرنه الساعه ٣ ونصف صباح يومنا ١٤ مارس وفى محطه غاليبولى الساعه السادسه مساء جاء المراقب البلغارى خلفا عن العثمانى فسال الركاب عن تذاكر السفر وعن أمتعتهم لاجراء التفتيش خوفا من وجود بضائع ممنوعه

وهكذا يفعل كل واحد من الملاحظين وهذا التفتيش انما يجرى مفعوله ان كان المسافر ينزل بمحطات الملاحظ السائل وأما ان كان مجرد مرور فقط فلا يطالب بشىء الا مجرد الاستفهام

ومررنا بصوفيا عاصمة بلغاريا الساعه واحدة ونصف وفى الساعة ٧ وربع مساء كنا بحدود صربيا بمدينة سربروت. وخلف المراقب السرى البلغارى فطاف على الركاب مستفهما ان كان ينزل أحد فى أراضيه وكذا عن التذاكر والامتعه وفى الساعه ٨ ونصف كنا أمام مدينة (أنيبو) التابعه لصربيا

وفى صباح ١٥ مارس وقف القطار بعاصمة صربيا بلغراد وبين هذه العاصمة وحدود النمسا مسافة نصف ساعة فى السكة الحديدية ويفصلهن نهر وأراضى النمسا والمجر جيدة وقد دخلها الاصلاح وعم جميع أطرافها فلا تجد شبرا خاليا من الزراعة أو من غرس الاشجار وكذلك قد انتشر فيها العمران وتكاثرت القرى فى ضواحيها وطقسها بارد وفيها معادن نفيسة مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص وغير ذلك وكذا فيها كثير من عيون الماء المعدنية وكانت هذه المملكة من ولاية الرومانيين فى الزمن القديم وقد استولت عليها فرانسا فى سنة ٧٩١ للميلاد وسماها أوستريا وبقيت تحت سيطرتها الى سنة ٩٨٢ فاستولى عليها امبراطور جرمانيا وفى الساعة الثانية مساء يومنا وقف القطار بمحطه مدينه بيستا وعدد سكانها نحو ١٥٠ الف نسمه ومن محاسنها ان فيها قنطرة على نهر الطونه المشهور وطولها أربعمائه متر فى عرض ١٢ مترا وهى مركبة على عمودين من حجر مرتفعين عن الارض بمقدار أربعة عشر مترا وبآخرها صخرة منقورة بالطريق النافذة للمواصلة مع تلك الجهات وهذه القنطرة تعد من أحسن قناطر الدنيا الموجودة بسبب حسن صناعتها واتقان بنيانها وفى الساعه ٧ ونصف وصل القطار الى محطه فينا عاصمه النمسا والمجر فغيرنا فيها قطارا آخر للمرور على مملكة سويسرا وهذه المدينه جميلة للغايه وفيها

معامل الحديد بكثرة حتى ان جميع أشغالهم بآلة حديديه وذلك كالمحاريث وأدوات الحصاد والدراس وآلات الحفر وغير ذلك من المنافع الحديديه وأهلها ماهرون فى الصناعه ومتقدمون تقدما زائدا و بضواحيها بساتين وحدائق نفيسة تخرج الناس للنزاهة فيها رجالا ونساء وأطفالا وهى تعد من الدرجة الثانية فى البهجة والظرافه مع اعتبار باريز فى الدرجه الاولى غير أن الفساد فيها منتشر انتشارا فاحشا فاضحت المدينة أسيرة له وهم مع كونهم لا يعرفون كلمة من اللغة العربية كما أننا لا نفهم لهم صغيرة ولا كبيرة يتبعوننا فى طريقنا أين ذهبنا و يجتمعون حولنا أين حللنا فى شوارع تلك المدينة ولا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء صغارا وكبارا فالغريب عندهم خصوصا اذا لبس مايغاير ملابسهم الاوروباوية لا يمكنه المسير ولا التنزه فى الامكنة العمومية لمزيد تعجب أولئك الاقوام فيما يغاير أشكالهم

ثم قام القطار مغادرا هذه العاصمة الساعة (٧) ونصف مساء ليلة (١٦) مارس و وصل الى حدود سويسرا فى الساعة (١٢ ½ ٦) ليلا فصعد المراقب السويسرى بدل النمساوى ومملكة (سويسرا) وان كانت صغيرة لكنها مشهورة بجودة هوائها وجبالها الشامخة وسهولها اليانعة لكثرة أنهرها و وفرة مياهها وليست أهميتها واقعة عند هذا الحد بل لها خطوات أخرى تجعلها فى الطبقة العليا لدى الامم وهو اكتسابها شهرة التعليم فقد بلغ اعتناؤهم بالعلم حتى عم جميع رعيتها من أقصاها الى أدناها فلا يوجد فيها رجل أو امرأة يجهل القراءة والكتابة و يوجد عندهم كليات لتدريس الفنون العالية وجامعات للعلوم المتنوعة وتؤمها الطلاب من كل فج عميق ومن جميل أخلاقهم ومبلغ تربيتهم أن الجنايات عندهم نادر وجودها

ففى الساعة (٦ ½ ٧) مساء يومنا وصل القطار الى حدود فرانسا بمحطة يقال لها (بتيوكروا) واستبدل السويسرى بمراقب فرنسوى و بعد هذه المحطة بمقدار (٤٥) دقيقة وقف القطار ببلدة (بيلفور)

وقد كنا قبل الحدود الفرنسوية مررنا على مقاطعة (الداس ولورير)

تلك الاراضى التى استولت عليها ألمانيا فى سنة (١٨٧١) الحرب السبعينية

ولم يزل القطار سائرا مع مافيه من السرعة العجيبة لوفرة أدوات الاستعداد حتى الساعة (١١ ½ ٦) مساء ليلة (٧) مارس فوصل الى مدينة (باريز) عاصمة دولتنا الفرنسوية وكرسى جمهوريتها فنزلنا بالمحطة الشرقية ثم ركبنا عربية وقصدنا اللوكاندة المسماة (داركور) وهذه اللوكاندة نظيفة جدا وخدمتها بارعون فى الادب ولطافة الاخلاق فنزلنا فيها مدة اقامتنا بهذه المدينة الفائقة

وهذه المدينة سميت باسم باريز فى زمن (يوليانوس) الامبراطور من سنة (٣٥٥) الى سنة (٣٦١) ميلاديه وقد اشتهرت مدارسها بالعلوم فى أواخر القرن الحادى عشر حتى قيل فيها انها مدينة العلماء وازداد أيضا عمرانها واتساعها فى التجارة وتبحرها فى الصناعة زمن حروب الصليبية وفى زمن (فيلبس) قصدها نحو عشرين ألف طالب لاخذ العلوم من أقطار أورو باوسميت اذذاك بكرية العلوم وعروسها لكثرة مدارسها وهذا الملك هو الذى بنى القصر (اللوفر) القديم ثم تخربت فى القرن الرابع عشر ثم هى لم تزل فى ارتباك داخلى بواسطة التحزبات واختلاف الآراء وكابدت مصائب كثيرة فى سنة (١٧٨٩) حيث قامت جمهوريتها من أبنائها وطلبت الحرية والخروج من ربقة الاستبداد وتعتبر هذه الجمهورية فى التاريخ الجمهورية الاولى ومع ذلك فالعلوم والصنائع متقدمة فيها وأعظم حادثة أوقعتها فى مصائب الدهر ضرب الحصار عليها من (البروسيين) سنة (١٨٧٠) زمن امبراطورها (نابليون) الثالث واستمرت تحت الحصار خمسة أشهر فكان لسان حالها يقول مخاطبا الدول والممالك (لا تظنوا ان قومى شهرتهم مقصورة على العلوم والصنائع فقط بل هم رجال الحرب و يتحملون أيضا الشدائد اذا عظمت والمصائب اذا كبرت) ثم رفع الحصار عنها و بعد سنة (١٨٧١) قامت قيامة الاحزاب بداخليتها واشتد النزاع بينهم ودارت رحى الحرب والقتل والاحراق بالنار فاهلكت النار جانبا عظيما وضاعت نفوس وأموال

لاتحصى واستمر الدمار فى هذه الفتنة سبعة أيام ثم اهتدوا بعد ذلك باسقاط رئيسهم وتعويضه (بالماريشال مكماهون) رئيسا للجمهورية وانتهت حينئذ الحروب الداخلية وأخذت رجال الجمهورية بجد ونشاط فى اصلاح ما أتلفوه فى هذه العاصمة حتى أصبحت فى حالتها الاولى كانها لم تصبها نكبة فى سنة (١٨٧٠) وسنة (١٨٧١) ومازالت تزداد عمرانا وتقدما فى العلوم والصنائع والمتاجر فى كل سنة الى أن بلغت شأوا بعيدا انفردت عن بقية مدن الارض بمزايا لانهاية لها وهى الى الآن تخطو خطوات الى الامام دائما لتحفظ لمركزها التفوق على غيرها أدبيا وماديا وعدد سكانها نحو ٢,٧٠٠,٠٠٠) نفسا

وهذه المدينة العظيمة مشيدة على نهر (السين) الذى يشقها الموضوع عليه ستة وعشرون قنطرة من الجسور الجميلة للمواصلة بين طرفى البلد ولكل واحدة اسم يخصها وأظرفها جسر (فياديك اوتيل) حيث انه ركب عليها قنطرة أخرى فوقها للمرور السكة الحديدية وقنطرة ثالثة تحتها لخصوص المشاة والوسطى للعربيات ونحوها

وشواطىء هذا النهر بداخل البلد محجورة بسور ارتفاعه نحو متر ونصف وفيه نوافذ متعددة متباعدة عن بعضها بمقدار مائة متر للنزول بواسطة سلم مدرج الى النهر فيوجد فى هذا النهر قوارب وزوارق بخارية بكثرة جدا لمن يريد التجول والنزاهة ونقل الركاب من جهة الى أخرى باثمان متزاهدة لاتزيد عن أجرة العربية براو وفى وسط هذا النهر فى بعض الاماكنة يوجد فيه جزائر محيطة بالمياه من كل جهة فتأتيها سكان المدينة لاستنشاق الهواء الطيب والنسيم الظريف وازالة الاتعاب التى يكابدها الانسان طول يومه فى تلك الديار

ومدينة باريز هى وان كانت مدينة بعيدة عن البحار لكن نهر الصين العميق المنقسم على ضواحيها والذى أغدق عليها بحيرات وخلجان وترع وبرك وجزائر صيرها فى غنى عن المحيطات البحرية لوفرة خيراته المتزايدة وشوارعها وأزقتها متسعة جدا بحيث تمر العربيات وخطوط الترموای

من غير مزاحمة وأما طريق المشاة فغير مختلطة بهما ثم انها كثيرة لا يمكن الاحاطة بها غير أن من أراد معرفتها من المسافرين فعليه ان يشترى قاموسا وضع لخصوص الشوارع لبيان أمكنتها

﴿ بيان الجهات التى ينبغى زيارتها والتفرج عليها فى هذه المدينة ﴾

الكتبخانات (مكتبة الحكومة) و(مكتبة الملة) و(مكتبة القدسية جينيفيسڤا) و(مكتبة مازارين) و(مكتبة الترسخانة) و(مكتبة العمومية) و(مكتبة الصنائع) و(مكتبة التاريخ الطبيعى) و(مكتبة مدرسة الملة) و(مكتبة التجارة)

وأما ديار التحف والآثار فهى (اللوڤر) و(لوكسامبور) و(قرساى) و(كالونى) و(الترم) و(قصر الصنائع) و(الطبجيه) و(السكة) و(مكتبة الجبخانات)

وأما القصور والمبانى فاللوڤر والقصر الملوكى والتويلرى وكالونى والترم وقصر الصنائع وقصر البستان والكابلة المقدسة وقصر المعارف والانقاليد المشتمل على قصر (نابليون الاول) والرصدخانه ومطبعة الملة

وأما البساتين فالتويلرى ولوكسامبور والقصر الملوكى والنباتات وحديقة الحيوانات وبواده وبولونى وبساتين الجنان وغير ذلك من الامكنة وهذه البساتين وغيرها تمتلئ رجالا ونساء خصوصا قرب الغروب فى كل يوم ويحيط بالقرب منها طوابى وقلاع للحصار فلم يوجد مثلها فى مدن أوروبا

أما مدارسها فكثيرة جدا وتفوق عن مدارس أوروبا قاطبة فى العدد والشهرة فيتخرج منها رجال العلم فى كل فن كالطب والحقوق والفلسفة وعلوم الطبيعة وتدقيقات الهيئة وعلوم الفلك وعلم طبقات الارض وعلم الكيميا العمليه فى التركيب والتحليل وعلوم الرياضيات وتهذيب الانفس وتربيتها واصلاح المواشى وعلم الزراعة وغرس الاشجار وغير ذلك من العلوم التى لايحيط قلمى بوصفها كالمدارس الصناعية التى عليها مدار قوام الامة وعماد الحكومة فمدارس العليا بباريز يتخرج منها رجال اختصاصيون على معنى

أن الواحد من هؤلاء التلامذة يكون بارعا فى الفن الذى يرغب الاختصاص به حتى يصبح جنسا برأسه وقسما مستقلا برأيه فتفيض ينابيع حكمته على مواطنيه فتعد قهم خيرات بطرق يسهل على المتعلمين تناولها بخلاف من تشتت فكره بجمع العلوم فلا يفيد بقدر ما يفيده الاول لانه لم يبلغ الاتقان فى العلم درجة الاول حيث كانت وجهة الاول محصورة فى شىء خاص لا يشاركه غيره فى حين ان الجامع للعلوم يكون ذكاؤه مجزءا بقدر ما أخذه من الفنون ومعلوم ان حركة التفكر فى المعقول والمحسوس تكون قوية أكثر اذا اتحدت أشعتها وضعيفة بقدر ما تتجزأ أنوارها وهذه الطريقة هى التى كان عليها سير التعليم فى القرون الاولى والوسطى ولذا نرى شهرة للامام سيبويه فى النحو ولم نسمع له ذكرا فى بقية الفنون وكذا ابن خلدون وابن الاثير فى التاريخ والزمخشرى فى التفسير وعبد القاهر فى البلاغة وابن سينا فى المنطق والحكمة وغير ذلك من فحول العلم وفطاحل الفكر المنير

وبالجملة فمدينة باريز فى العلم هى الوحيدة فى قارة أورو با تشد اليها الرحال وتضرب اليها أكباد الابل فهى لا تزال من يوم نشأتها الى يومنا تتقدم خطوات الى الامام لتحفظ لمقامها السباق على غيرها وقد اكتسبت بهذا المبدأ القويم ثقة الآباء فى ابنائهم غربا وشرقا فأوفدوها زرافات من أفلاذهم لتستنير بصيرتهم بما يقتطفونه من المعارف التى هى فى العزة كالشموس وبدروس نافعة تتهذب بها ملايين من النفوس فتمكث تلك التلامذة تجنى اليانع من ثمر تلك المدارس مدة هم فى عنفوان شبابهم وازدياد قواهم النامية حتى تمتلئ أحقابهم بالنفيس من الجواهر الثمينة ثم يعودون الى أهاليهم وقد بلغوا أمنيتهم

ولم يكن التعليم بهذه المدينة مقصورا على البصير والصحيح بل عم جميع طبقات النوع الانسانى حتى ان هناك مدارس لتعليم العميان الصنائع والاصم القراءة وهذا الاعتناء بالغ النهاية فى تهذيب البشر وتعليمه مصالح

معاشه حتى لا يصبح عالة على الغير مسكينا طول حياته فقد تضمن التعليم بهذا الاسلوب الحكيم نجاح الامه وفوز مستقبل أبنائها وتكفل أيضا بمصالحهم المعاشيه التى سواد الامه فى أشد حاجة اليها من غير تفرقة فى ذلك بين طبقات الرجال وطبقات النساء والفضل فى ذلك ليس راجعا فقط للمعلمين والمتعلمين بل المزية العظمى انما هى للحكومة التى بلغت عنايتها بتأسيس المدارس وتشييد الكليات والجامعات مبلغا أحرز لها سباق التعليم أمام دول عظمى تزاحمها ببذل النفس والنفيس فى ترقية مركزها العلمى والعملى فعجزت تلك الدول باجمعها عن الوصول الى أدنى درجة فى تهذيب النفوس الذى هو شرط فى كمال العلم فضلا عن الخوض فى البحور العميقه من نفائس العلوم فلهذا نرى للانجليزى تكبرا وللالمانى اعجابا وللروسى خشونة وللطليانى صلابة وللبلقانى توحشا وللاسبنيولى قساوة وغير ذلك من الاخلاق الفاسدة التى ضررها بصاحبها أكثر من نفعها وهذا خلاف ما نشاهده من رجال الفرنسويين الاحرار البارعين فى الادب ولطافة القول وظرافة الكلام وبهجة المنطق وحسن المعاشرة وكرامة الجوار وعزة النفس وثبات العقل وكمال المروءة والوفاء بالعهد والمحافظة على الوداد وغير ذلك من المحاسن التى لا أحصى ثناءها ويقصر قلمى عن الاحاطه بها فلعمرى يحق لا محالة أن تكون مدينة باريز عاصمة العلم فى أوربا باجمعها وسيدة المدن فى القارات باسرها وهذا الحكم الايجابى يمكن أن يستدل على نسبته بالاستقراء والتتبع أو بالمشاهدة التى هى أكبر دليل لانزاع لجميع العقلاء فيها

ومما يحسن الذكر بهذه المدينة مدرسة الصنائع التى فى دربة (سان مارتين) وهو محل جسيم يحتوى على نحو أربعمائه قاعه المشحونه بالرسم والتماثيل البخاريه المختلفه النوع والشكل ويوجد باحدى قاعاته الفوقانيه لوح من الزجاج الزيبقى وبدائره ألواح من الخشب العال وهو معلق بحائط كالواح الزينة من غير أن يكون خلفه منفذ يستشرف على الخارج لكن اذا قاربت منه ترى السوق القريب من المدرسة وكذا المبانى والمارة من الناس وكل

مايحدث فى السوق طول اليوم مع ان تلك القاعة لم يكن فيها فرجة تشرف على السوق أصلا فيتعجب الداخل فيها من هذه الصناعة الظريفة وسر هذا اللوح الذى يقدم لمن يداخل المدرسة هيئة السوق انه يواجه لوحا آخر من جنسه مركبا على منفذ بسقف تلك القاعة وهذا الثانى يوازى نظارة كهربائية مشرفه على السوق وطرقه ومبانيه فترتسم جميع المناظر فيه بطبيعتها من غير أن يقع فيها أدنى تغيير أصلا ثم ان اللوح الذى بسقف تلك القاعه يأخذ تلك الصور المرسومه فى النظارة بقوة جاذبيه يبعثها الى اللوح المعلق بحائط القاعه من الداخل فهذه الصور الخياليه البالغه الى درجة الحس تنطبع بسرعه عجيبه وتأخذ بالابصار فى الظرافه فلله در أصحاب تلك العقول التى تخترع هذه الاشياء الغريبه التى لا يقدر اللسان ولا القلم على وصفها

أما الكتبخانه فاحسنها مكتبة المله وهى تحتوى على نحو ثلاثه ملايين مجلدا

وأما التياترات فكثيرة جدا وأحسنها تياترو الاوبرا الجديد الذى شرع فى بنائه سنه (١٨٦٠) وهو بالقرب من شارع (كابوسين) ومزين بالاعمدة الرخاميه والتماثيل التى من النحاس الاصفر وهو من أحسن تياترات الدنيا فى البناء والزخرفه والفرش والملاعب الرياضية والغناء والاصوات الموسيقيه

ومع ذلك ينبغى لمن يهمه الاطلاع على غرائب الامور أن يتفرج على المحلات الاخرى ليعرف نظامها وترتيبها ويجب عليه الحذر فقط من الوقوع فى فخاخ حبائل الشيطان من البنات التى يجدهن فى أمكنة الرقص وشوارع (كابوسين) و (مادلين) و (ايطاليان) لئلا يلعبن بعقله ويجذبنه الى شركهن الذى لا قرار له

وأما الاسواق المختصة لبيع المأكولات والمشروبات وتسمى (هال) فهى ظريفة جدا وأحسنها هال سنترال أى المحل الوسطى فهو عبارة عن اثنى عشر محلا من زجاج متصلة ببعضها ويعلوها قباب من زجاج أيضا وتحتها

مخابئ معدة لخزن الامتعة ويبلغ اتساع السوق المذكور نحو ٩٠٦٠٠٠ متر مربع وهو مجاور لكنيسة (سان أوساش) وفى شوارعها رحبات كثيرة مزينة باعمدة عليها تماثيل من النحاس كتمثال هنرى الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر وجان دارك وغيرها خلاف الاحواض الظريفة من المياه كحوض انيوسال ودورجرينيل

وأما شوارعها فيلزم لمن يريد معرفتها شراء قاموس مخصوص لها والمشهور منها الشوارع المعروفة باسم (بولفار) مثل بولفار المارلين و (الكابوسين) و (الايطاليانى) و (سان دنيس) و (سان مرتين) و (سيباستيبول) وشارع (ريفولى) الطويل وغيرها

وأما منتزهات المدينة فكثيرة جدا منها بستان (تويلرى) و بستان (لوكسامبور) و بستان (القصر الملوكى) المتقدم ذكره و (بوت شومون) وغابة (بولونيا) المشتملة على البستان الحاوى جميع أجناس الحيوانات وغابة (فنسان) و بستان النباتات وغير ذلك مما لا يسعنا ذكره فى هذا المختصر

ومن حسن التدبير انه يوجد منتزهات بقرب كل جهة من أطراف المدينة حتى لا يحرم أحد من استنشاق النسيم من المناظر الطبيعية

ومن المنتزهات اللطيفة التى بقرب (قصر تويلرى) فانه مشحون بالاشجار والنباتات الزاهرة وبرك الماء الباهرة والمصابيح الكهربائية ومحلات الغناء والملاعب والملاهى

ومنها منتزه بوت شومون وهو فى شمال المدينة فهو بستان عظيم وأرضه بعضها مرتفع كهيئة جبل وبعضها منخفض كهيئة واد وهى مكللة باشجار هائلة وفيه محل يتساقط منه الماء من أعلى الى أسفل تقر لرؤيته العين وينشرح بخريره الصدر ثم يتكون هذا الماء فى بركة ظريفة ومنها بستان (بولونيا) فهو فسيح جدا فى شرق المدينة يضيع الانسان فيه اذا ذهب اليه بدون دليل لانه كان مدينة عظيمة فى العصور الخالية واستعوضت قصورها بالاشجار والنباتات وبالقرب من بابه الشرقى بستان يحتوى على كافة أجناس

الحيوانات والطير والسمك والحشرات الموجودة فى الدنيا ومن جملتها قردة بقدر العصافير الصغيرة ولهذه الغابة أبواب كثيرة وفيها طرق ومسالك ولو كاندات وقهاوى ومراسيح فسيحة للسباق وخلجان وقناطر وجزر مزينة بقصور صغيرة مخصصة للرقص والغناء وفى تلك الخلجان قوارب وزوارق للنزاهة وهناك جبل اصطناعى ارتفاعه أربعة عشر مترا وعرضه ستون مترا يهبط الماء من أعلاه الى أسفله بصوت جميل وتحته غار مصنوع أيضا

وأما الانوار الغازية فيها فانها تجعل الليل كالنهار وقد ابتدعها (فيليب لويون) فى سنة (١٧٩٨) الا أنه لم ينجح فيها حتى عرضت على جمع من العلماء فاستحسنوها وأوقدوها فى تياترو الاوربون والطرق المجاورة له فى سنة (١٨٢٠) ثم صارت تزداد يوما فيوما حتى صارت الآن نحو خمسمائة ألف قنديل كهربائى يوقدونها بواسطة المعامل الكبرى وأما كنائسها فكثيرة أيضا وأحسنها كنيسة مريم العذراء

وهى فى درب (اركول) بنيت فى سنة (٥٢٢) ثم قسموها الى قسمين فى سنة (٨٦٠) قسم للعذراء والآخر لمارستغان ثم شرعوا فى سنة (١١٤٠) فى تحسين بنائها بواسطة المهندس چارلاند الشهير ثم الحقت الكنيستان مع بعضهما فى سنة (١١٦٠) ثم جددوها فى سنة (١١٦٣) لكنها لم تتم الا فى سنة (١٢٦٣) و بقيت على هذه الحالة الى الآن فطولها (١٣٠) مترا وعرضها (٤٨) مترا و بها برجان مرتفعان يبلغ ارتفاع كل واحد منهما نحو (٦٨) مترا و باعلى البرج الايسر جرس يسمى (بوردون) يبلغ وزنه (١٦٠٠٠) كيلو جرام ووزن اليد التى يضرب بها عليه (٤٨٧) كيلو وكان وضعه فى أيام (لويس) الرابع عشر فى سنة (١٦٨٢) ولا يدقون على هذا الناقوس الا فى أيام هامة كوقوع حادثة فجأة واحراق النار وما يشبه ذلك وأما البرج الايمن فيوجد باعلاه نحو أربعة نواقيس اعتيادية وهذه الكنيسة من خرفة من الداخل بالرسوم والاشياء الثمينة الفاخرة وهى متسعة يدخل تحت سقفها

نحو (٢١٠٠٠) نفسا فى آن واحد و يوجد فيها كثير من الآثار النادرة وهى أظرف وأحسن بقية الكنائس

هذا فمدينة باريز مع ضواحيها بما فيها من الحدائق والمنتزهات وقصور الملوك والآثار و بيوت المستشفيات والمعامل المتنوعة والصنائع المختلفة والمدارس المتكاثرة ودواوين الحكومة والمبانى الفاخرة والمتاجر العظيمة والرحبات الواسعة والشوارع الهائلة والتماثيل العجيبة وغير ذلك من المزايا الباهرة كل ذلك روضة من رياض الدنيا لا تأتى الايام بمثلها

وحيث ذكرنا أوصاف هذه المدينة على وجه الاختصار مفيدة لمن يهمه الاطلاع على أحوال الامم وعجائب مصنوعات الله تعالى ومبلغ قدرته فى خلقه فلا يتبادر الى الذهن أنها مقصورة على ما ذكر فقط بل هى أكثر من أن يحيط بها وصف واصف أو كتابة بليغ

ولما كان الغريب اذا دخلها يعتريه من الحيرة ما يمنعه من التلذذ بمحاسنها فيغيب فكره عن مشاهدة جمالها اتخذنا فى سياحتنا فيها دليلا من أهلها ومرشدا من أبنائها بمعرفة اللوكاندة التى نزلنا فيها وذهبنا بواسطته الى أعظم الامكنة المشهورة واطلعنا على عجائب المصنوعات وأفخر المعامل الغريبة وأحسن حدائق وأشرف بساتين وأجمل قصور وأظرف منتزه وهكذا من المواضع المهمة التى تقدم شرحها

ومما شاهدناه من المتاجر الجسيمة المحل المسمى (ثران لوبير)

وكذا دور الآثار والمتاحف ودواوين الحكومة وفى ليلة (١٩) مارس سررنا برؤية الالعاب الرياضية بالمكان المعروف بالاوبرا وتقدم بيان تأسيسه وهى من أجمل ما تقر به العين لما فيه من تشخيص الروايات تقادم الزمن عليها ولم يبق لها أثر الا فى بطون المجلدات الضخمة ولكن أصبح فن التشخيص فى مثل هذه الاوبرا يرينا على وجه الحقيقة أمورا قد عجز الخيال عن الاتيان بوصفها بسرعة عجيبة وخطابات غريبة وأشعار مؤثرة وحالة تأخذ بمجامع القلوب وتسكن لها الجوارح ولا يسمع للحواس صوت ولا حركة بل

الكل منصرف بجسمانيته الى مشاهدة تلك المشخصات الهائلة وهى دروس نافعة جدا وهذه الالعاب الرياضية مع مافيها من الخفة وتمام السرعة ضروب من الفراسة وجودة الذكاء وهذا الفن صار منتشرا فى المشرق كمصر غير أنه لم يبلغ الاستعداد به الى الموجود ببعض احياء باريز وأما الابرة هذه فهى فوق مايتصور بلندن وعواصم أوروبا والولايات المتحدة المولعين برياضة النفس واستنباط المخترعات الجديدة ويدخلها فى الليلة الواحدة آلاف من النفوس والدخول فيها درجات ومراتب تختلف باختلاف اليسر والعسر نساء ورجالا وبنين وبنات

وفى الساعة العاشرة وستة دقائق من صباح (١٩) مارس قصدنا زيارة حبيب لنا وهو مقيم بقرية (سان شرون) فركبنا القطار السريع فوصل اليها الساعة (١١ و ½) فوجدنا خديمه بالمحطة ينتظرنا بعد ما كنا أعلمناه بقدومنا ثم ركبنا فى عربية كان أعدها لنا وسارت بنا الى بيته المشيد وسط بستان ظريف تقى الهواء طيب الروائح جميل المنظر فخرج لملاقاتنا هو وزوجته وبنته ففرحوا بنا فرحا زائدا وأجلسونا بمكان مزين للغاية

فدارت بيننا ألفاظ التحيات ببشاشة وسرور ثم قدموا لنا مائدة مملوءة بأفخر المطاعم والفواكه والحلويات والمشروبات وهى لا تنقص عن موائد الملوك فتناولنا تطييبا لخواطرهم مايباح لنا أكله وشربنا بعد ذلك القهوة والشاى وسررنا جدا من همة هؤلاء الاخلاء ثم عزمنا على الرجوع الى باريز فشيعونا الى المحطة ثم ودعناهم مثنين على صنعهم الجميل فركبنا القطار ووصل بنا الى محطة باريز فى الساعة الرابعة مساء يومنا

ومما يروق له المنظر مارأينا بالمتحف الكائن بالنظارة الحربية حيث طلبنا من ناظر الحربية التصريح لنا بالدخول لمشاهدة المتحف فصدر الامر الى ضابط من ضباط الجيش ليطلعنا على الآثار الموجودة هناك فوجدنا ذلك المتحف مكللا بالاسلحة القديمة التى كانت الملوك تهديها الى قدماء فرنسا والتى كانت جيوش فرانسا تأخذها غنيمة فى الحروب الماضية

وكذا فيه صورة كل ملك بملابسه وسلاحه مع جيشه ومن جملتهم (نابليون) الاول ذلك البطل المشهور وفى هذا المتحف مايتعجب منه الانسان ويحير الفكر وهو من أهم الامكنة التى ينبغى الوقوف عليها

وممن اجتمعنا بهم أحد اسرائيليين كان من تجار قسنطينية والآن من تجار باريز واستقبلنا أيضا بسرور بالغ ومعه أخته متناهية فى الجمال وبارعة فى الفصاحة وعارفة باللغة العربية ومتعلمة بالمدارس ومتخرجة منها ولها معرفة تامة بعلم الموسيقى حسب أصولها التى تعلمتها مع مهارة فائقة فاطربتنا بغنائها الموسيقى والنغمات الشجية

هذا وقبل انتهاء الكلام على هذه المدينة العظيمة بوجه وجيز لا أستطيع ان أذكر مبالغ الاتقان والجودة فى مبانى ديار البنوك والبوسته ودار الضرب والخزينة ومعامل الدخان ومحطات الثمانية للسكة الحديدية وهى فى الحقيقة لايحق لها أن تكون عاصمة لجمهورية فرنسا فقط بل تستحق ان تكون قاعدة لممالك الدنيا باجمعها وعروس المدن بأسرها لكونها منبع التمدن ونهاية الترقى ومجمع المذاهب والاديان خصوصا ان محاسنها لم تجعل مقصورة على أبنائها فقط بل الناس كلهم سواء فيها من غير تفرقة بين بنى البشر فلم يكن أيضا فضلها خاصا بالنوع الانسانى بل عم الحيوانات المنزلية والوحشية فأخذت حظا وافرا من تربية النفوس وتهذيب الاخلاق حتى أصبح ثمن الكلب والقرد بل وثمن العصفور أكثر باضعاف من ثمن الفرس عندنا ولعمرى ان هذا الصنع نهايته الحضارة التى بلغتها الامم فى القرن العشرين وكانت دولتنا فرنسا من بينها تفوقها بمزايا ليس فى استطاعة بقية الدول ان تنالها ولا ان تحوم حولها وأنا لا يسعنى الا الثناء الجميل على رجالها ولطافة أخلاقهم سيما مارأيناه من المحاسن الكاملة بهذه المدينة الطويلة العريضة الاصيلة التى مادخلها أحد الا وتمنى العودة اليها

ولما أن تم لنا الوطر بهذه العاصمة أردنا أن نسافر الى مدينة (ليون) فركبنا القطار من محطة (فيليم) الساعة السابعة ونصف صباح يوم

السبت ٢١ مارس فقام سائرا فى ضواحى باريز وسهول نهر السين وغير ذلك من الاراضى المكللة بالمزروعات المتنوعة و بالاشجار المختلفة المزينة بالبساتين الزاهرة والمناظر الطبيعية والجبال الرفيعة والاودية الناضرة والمياه الجارية والسواحل المملوءة بالقرى والمدن الجميلة ولم نزل نلتذ بتلك المناظر الطيبة حتى الساعة الرابعة مساء يومنا فوصل القطار الى محطة (ليون) فقصدنا بعد النزول الى غرفة السواحين قرب المحطة المسماة عندهم (أوتيل لنقار) وهو جميل ظريف ينشرح له الصدر و ينسر لرؤيته القلب

واعلم ان هذه المدينة مشهورة بجودة صناعة الحديد والصوف والاقمشة الملونة المزينة بالذهب والفضة ولذلك يوجد فيها نحو مائة وأربعين ألف صانع من الشغلة بالمعامل والمنسوجات

و يبلغ عدد سكانها (٣٤٢٠٠٠) نفسا و يشقها نهرا (الرون) و (الصون) و يتحد هذان النهران فى أركان هذه المدينة . وشوارعها نظيفة للغاية ومشهورة بحسن الرونقة وتمام النظام و فى رحاباتها المتكاثرة كثير من التماثيل لبعض الملوك وأحسنها رحبة (لكور) بكسر الباء وضم الواو وهى فسيحة جدا ومزينة بالتماثيل وتضرب فيها الالحان الموسيقية فى كل عشية ومبانيها جميلة وظريفة

وقد اشتهرت أهاليها بحسن الاخلاق و بياض البشرة ومحاسن الخلقة فيحصل للغريب سرور بمعاشرتهم هذا ومن يرغب التفرج على معامل الاقمشة فعليه بالمحل المسمى (كدواروس) حيث يجد فيه من البضائع الغريبة ما يدهش العقول

وهناك أيضا تياترات بكثرة تجمع الناس فيها لسماع الالحان والاصوات والتفرج على الالعاب الرياضية خصوصا محاسن نساء تلك المدينة المشهورة بالحسن والجمال

وفيها منتزهات كثيرة أيضا غير ان ما فيها مع بهجتها لا يصل الى منتزهات باريس ولنكتف بما أوردناه هناك وقد كانت لنا صحبة ببعض المعامل

الحريرية بهذه المدينة فتوجهنا لزيارتهما وهما (طاكى) و (منارورلان) فاستقبلونا بهتاف زائد وحصل لهم سرور جدا بزيارتنا لمالهم من المعامل الكبرى الحريرية وأحضروا لنا الشاى والقهوة وذهبوا بنا فى تلك العشية للتنزه فى بعض الامكنة الظريفة وكذلك ألزمونا بالدخول الى التياتر والبلدى الجميل للتفرج على الالعاب الرياضية الغريبة التى تاخذ بالابصار و ينعطف لها الوجدان وقد تقدم وصف هذه الالعاب فى الكلام على باريز فارجع اليها لتعرف شدة تأثرها فى النفوس وقوة تمكنها من الشخص ومبلغ بهجتها وحسن جمالها

و فى صباح ٢٣ مارس أحضروا لنا العربية السريعة الجرى المعبر عنها عندهم بطمو بيل فركبناها للنزهة فى المدينة وضواحيها مثل المتحف الاثرى وكتبخانة ودواوين الحكومة والرحبات الفسيحة والمتنزهات المفروشة بالاشجار العالية المكللة بالازهار السامية المزينة بالسواقى والاحواض من المياه الجارية وكذا عبرنا على القناطر المتينة البالغة النهاية فى دقة الصنعة واتقان الهندسة والمحلات الكبرى فى الاقمشة والمتاجر العظيمة خصوصا ما شاهدناه من المعامل الحريرية غزلا ونسجا لاصحابنا ومالهم فى ذلك من اليد الطولى والباع العظيم فى أصناف الحرير مع اختلاف طبقاته وتفاوت أجناسه وكذا من أصناف الاقمشة التى لا يحيط قلم كاتب باحصائها وهى فيما عليه من جودة الصناعة ومتانة المادة ورونقة الالوان وزخرفة الاشكال بالغة مبلغ العجب

وهذه المدينة مشهورة بالتجارة العظمى وهى وان كانت برية لكن أهميتها فى المعامل والتجارة قد تزيد فائدتها كثيرا على الموانى البحرية ولذلك خص لنقل البضاعة فقط ثلاث محطات متباعده عن بعض باطراف المدينة وثلاث محطات أخرى لخصوص الركاب والجملة ست محطات للسكة الحديدية بهذه المدينة وهى طولا نحو خمسة كيلومتر وعرضا نحو ثلاث كيلومتر و يبلغ سطحها بهذا التقدير (١٥٠٠٠) مترا مربعا وفى ضواحيها يهتمون كثيرا

بتربية دودة القز ولهم دراية تامة بما يناسب حالها ونموها ويكثرون أيضا فى غرس الاشجار التى ورقها غذاء لهذه الدودة وبالجملة فمدينة ليون مشهورة بنسج الحرير وطرزه وكذا توابعه ولما تممنا السياحة بهذه المدينة الكبيرة الثروة رغبنا فى التوجه الى مدينة مرسيليا فركبنا فى الدرجة الثانية من القطار السريع باجرة قدرها ٢٢ فرنكا عن النفر الواحد وغادر محطة ليون الساعة ١١ ونصف ٢٣ مارس فوصلنا الى مرسيليا صباح يوم ٢٤ منه

(مدينة مرسيليا)

اعلم ان هذه المدينة هى من أقدم مدن العالم لان تاريخ بنائها فى سنة (٥٩٩) قم وعدد سكانها نحو (٣٥٠٠٠٠) نسمة وهى من أساكل فرنسا المهمة وهى منقسمة الى قسمين يعرفان بالمدينة القديمة والمدينة الحديثة أما القديمة فهى مرتفعة على تل ما بين الميناء وشارع (الكانبيين) و(كور بلذانس) وطريق (ايكس) وزقاق (النساء) ويشقها شارع عظيم قد جرى افتتاحه من وسطها فى المدة القريبة ويعرف بشارع (ربيو بليكا) وطرقها قذرة ومسودة ومفروشة باحجار صغيرة غير متسعة

وأما المدينة الجديدة فهى من الميناء القديمة الى باقى الجهات وشوارعها وأسوارها نظيفة ومزينة بالمحلات التجارية ومعامل الصناعة ولها من جهة البحر ميناء حديثة أيضا تسمى (پورت جوليت) وهى فسيحة جدا بحيث يدخل فيها نحو الالفى سفينة ويحيط بها من الفنارات لسير المراكب البحرية ليلا عدد كثير وموضوعة على شكل جميل جدا ومتقنة فى الصناعة

وبجوارها بناء مشيد يسمى (دوك) وهو يحتوى على عدة من القاعات أعدت لخزن الواردات والخارجات من الحبوب والامتعة وصناديق التجارة وهو تابع لمصلحة الملاحة ويبلغ اتساع قاعاته ما يشحن نحو خمسة وسبعين ألفا من (طنولاتو) من البضائع

وأحسن شوارع هذه المدينة شارع (كانبيير) وهو فسيح جدا

وفيه أعظم اللوكاندات وقصر البورصة (مجمع التجار) الذى شرع فى بنائه سنة (١٨٥٢) ميلادية وتم فى سنة (١٨٦٠) ويكفى فى فخامة هذا القصر استمرار البناء فيه ثمان سنين وتجاه هذا القصر بستان صغير فيه بركة ماء ظريفة يعرف بالرحبة الملوكية أو رحبة (ربيو بليكا) وفيه أيضا ساعة شمسية لمعرفة أوقات النهار وهى عبارة عن حجر كبير فوقه بعض آلات الرصد لمعرفة الاوقات بالضبط ومنقوش باسفله فرق الساعات والاوقات فى بعض جهات المسكونة وحيث ان هذه الساعة محققة فى سيرها ومضبوطة فى أوقاتها فيكون الفرق بين زوالها وزوال بعض المدن المذكورة فى جدول يوجد فيها فى غاية من التحقيق أيضا لان سير هذه الساعة جار على سير الشمس

وهذا الجدول يبين لك الفرق بين الزوالين فاذا كانت الشمس على دائرة نصف نهار هذه المدينة يعنى وقت الزوال الساعة (١٢) نهارا تكون الساعة فى الجهات الآتية كما يأتى

ثانية	دقيقه	ساعه	أسماء البلدان	
١٩	٢٨	٠٠	رومه	بعد الزوال
٠٤	٣٢	٠٠	برلين	«
٠٠	٤٤	٠٠	ويانه	
٢٦	٣٤	١	الاستانة العلية	بعد الزوال
٠٠	٥٥	١	مصر	«
٤٣	٣٩	١	بطرس بورج	«
٥٨	٣٨	٥	كلكتا (الهند)	«
٢٤	٢٤	٧	باكين (عاصمة الصين)	«
٣٠	٥٧	٨	بيدو	«
٠٠	١٠	٠٠	چينيقرا	«
٧	٣٨	١١	لوندره	قبل الزوال
٥٠	٤٧	١١	باريس	«

فيرى بهذا البيان فى هذا الجدول الموجود بالساعة الشمسية بمدينة مرسيليا ان البلاد الشرقية منها يتقدم فيها الزوال بمقدار الفرق بين أطوارها ويتفاوت ذلك بتفاوت البعد والقرب . ومن المعلوم ان اليوم مع الليلة ربع وعشرون ساعة فيكون ربعها ست ساعات فاذا حصل الزوال بمرسيليا كان الوقت فى الهند ٥٨ ثانية و ٣٨ دقيقة و ٥ ساعات أعنى وقت غروب الشمس تقريبا

وبالقياس مع باكين عاصمة الصين يكون وقت الزوال بمرسيليا يوافقه وقت العشاء بالصين هذا مع الجهات الشرقية وأما لو تتبعنا الجهات الغربية من مرسيليا لوجدناها بالعكس

لانه عند مرور الشمس على دائرة نصف النهار لهذه المدينة يحصل الزوال والمدن التى هى غربا منها كل واحدة لها أيضا دائرة نصف نهارها وهذه الدوائر كلها متباعدة عن بعضها بمقدار الفرق بين طوليهما ومعلوم ان الزوال الذى هو مبدأ اليوم عند الفلكيين على رأى هو عبارة عن مرور الشمس على دائرة مفروضة من دوائر نصف النهار وتقدم فى تمهيد الرحلة ان دائرة نصف النهار هى دائرة عظمية توهمية تقسم الكرة الارضية أو كرة العالم الى نصفين متساويين أحدهما شرقى والآخر جنوبى فتمر بنقط أربعة كل نقطتين متقابلتان

النقطة الاولى ومقابلتها الشمال والجنوب وبينهما نصف الدور أى ١٨٠ درجة فلكية والنقطة الثالثة ومقابلتها سمت الرأس والقدم بينهما أيضا نصف الدور

أما نقطتا الشمال والجنوب فلا يتغيران وأما نقطتا سمت الرأس والقدم فيختلفان باختلاف اى بلد تفرض على سطح الارض وحيث علمت ان زوال اى مدينة هو مرور الشمس بدائرة نصف نهارها فيكون وقت الزوال بمرسيليا متقدما على زوال البلاد الغربية منها ولذلك ترى فى الجدول المذكور انه يقابل زوال مرسيليا فى لوندره ٧ ثوانى و ٣٨ دقيقة و ١١ ساعة وفى باريس

٥٠ ثانية و ٤٧ دقيقة و ١١ ساعة يعنى بقى للزوال فى لوندره ٥٣ ثانية و ٢١ دقيقة وفى باريس ١٠ ثوانى و ١٢ دقيقة

وهذا الحساب يجرى فى أى نقطة تفرض على وجه الارض غير انه يحتاج الى معرفة أطوال البلاد المحققة التى استخرجت بارصاد جديدة لانها أتقن بكثير من القديمة

وسبب هذا الاختلاف الواقع بين بقاع الارض هو اختلاف الآفاق بعد العلم بأن الارض كروية الشكل كما تقدم لانه لو فرض انها مسطحة لكان شروق الشمس وغروبها وزوالها متحدا فى جميع أنحاء المعمورة من غير تفرقة أبدا وهذا الفرض باطل بالمشاهدة حيث تبين لك ان غروبها فى الهند مثلا يوافقه وقت الزوال بمرسيليا وكذا القياس فى الغروب والزوال

وأيضا لو كانت الارض مسطحة كما يتوهمه بعض الناس لكان الليل مساويا للنهار فى كل سنة وفى كل المعمورة حيث ان الشمس فى نقطة طلوعها على هذا الفرض تكون مرئية لسكان الارض على السواء فى آن واحد وكذا نقطة الغروب المقابلة لها وهذا الفرض أيضا باطل بالبداهة لما نشاهده من اختلاف الليل والنهار زيادة ونقصانا الا فى يومى الاعتدالين فيتساويان ويشهد لكرويتها قوله تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار » الآية فليس من الامكان وقوع اختلاف الليل والنهار زيادة ونقصانا الا بجعل الارض كروية الشكل لما علمت من عدم تأتى ذلك مع فرض سطحيتها

وأما اختلاف الآفاق فانما يميز المغارب والمطالع وبها يعرف تقدم طلوع الشمس بالنسبة الى نقطة مع بلدة أخرى وكذا غروبها

ولاختلاف الآفاق اختلفت رؤية الاهلة التى هى من جملة المغارب فيمكن رؤية القمر بأول الشهر عند استهلاله بالجزائر مثلا مع امتناع رؤيته بمدينة مراكش وهكذا القول مع سائر البقاع الافى الآفاق المتقاربة بست درجات ونحوها ولهذا احتاط بعض الفقهاء فقال لا يصح الصوم مثلا اعتمادا

على رؤية الهلال باسلامبول أو مصر بالنسبة لمن يقيم بالاقطار المغربية لتباعد الآفاق وهذا القول وجيه وان كانت الفقهاء لا يتبعون تدقيقات الفلكية مع انهم محتاجون اليها فى كثير من المسائل المهمة وانما أوسعنا المقال فى هذه المسئلة لمناسبة الجدول المار ذكره حيث ان فيه كثيرا من الناس لا يعقلون له معنى ولنرجع الى الكلام على مرسيليا

ويوجد بين شارع (كانبيين) وشارع (نوائل) رحبة (المطران بلذانس) الموضوع فيها تمثاله المصنوع من النحاس فى سنة (١٨٥٢) م تذكارا له

وقد كان لكثرة محبته هذه المدينة يساعد أهلها مساعدة عظيمة حين نزل فيهم الطاعون فى سنة (١٧٢٠) ويسعى فى دفن الموتى وقضاء مصالحهم وبالقرب من هذه الرحبة باب (اكس) وهو باب مشيد باحجار عظيمة مزينة بالنقش والتماثيل الظريفة

ومن منتزهاتها (مايان) و (كابوسين) وهما فى نهاية شارع (كانبيير) ومظللان باشجار عظيمة تذهب الناس اليها للنزاهة وفيهما كراسى للجلوس وتضرب فيهما الالحان الموسيقية ويقابلهما كنيسة (الكاندره) الجديدة ويقرب منها قصر (لونشام) المعروف بقصر الماء وذلك بسبب بركة الماء التى باعلاه وتنصب منها المياه الى بركة أخرى مما بين تماثيل البقر الحجرية العظيمة وهذا القصر المشيد يشتمل على دار التحف من الطيور والحيوانات وفيه بستان فسيح تذهب اليه الناس فى جميع أوقات اليوم وهو يحتوى على بعض حيوانات منها الفيل يقال انه تربى فى هذا البستان ولما أرادوا اخراجه منه امتنع كلما أتوا به الى الباب انتفخ على الناس وتغلب عليهم ويرجع الى محله فلما تحققوا منه شغفه بالمكان الذى تربى فيه تركوه طول حياته بهذا البستان

وفى هذه المدينة خليج متسع جدا يبلغ طوله نحو سبعة وثمانين ألف متر بعضه طبيعى والبعض الآخر صناعى منقور تحت جبل مرتفع على سطح

الارض وهو معمول لتفريغ البضائع من السفن والمراكب البحرية وخلفه قصر ظريف تابع لمصلحة هذا الخليج

ويوجد على شاطئ البحر قرب المدينة حوضان للاستحمام أحدهما للرجال والآخر للنساء وبينهما حاجز حتى لا يبصر أحد الآخر ويحتويان على نحو ٢٤٠ خلوة وهناك بناء مشيد أيضا للاستحمام بالمياه المعدنية النافعة للتمروح والاعصاب والامراض الباطنية وما أشبه ذلك

والذهاب الى هذه الجهات اما بواسطة السفن الصغيرة واما بواسطة العربات المخصوصة لنقل الناس من مصلحة هذه الحمامات وأجرة الركوب ذهابا وايابا والاستحمام فرنك واحد

ومن الاسف أن فى الجهات القديمة لمرسيليا لا يوجد فى مساكنها وقصورها مستراحات لقضاء الحاجة أصلا وتحتاج الناس والحالة هذه الى الخروج سواء كان فى الليل أو فى النهار لاقضاء أوطارهم فى الشوارع حيث ان الحكومة جعلت فى أزقة هذه الجهات أمكنة لهذا الغرض وفى كل مكان نحو اثنى عشر مستراحا وهى مبنية بغاية من الاتقان ومفروشة أرضيتها ومغطاة حيطانها بصفائح من الرخام النفيس وعلى باب كل مكان امرأة من طرف الحكومة تقبض من الداخلين خمسة سنتيمات

وأما لغة أهاليها فانها ردينة ليست كلغة بقية مدن فرانسا لاسيما اللغة المعروفة عندهم (بروفنسال) فانه لا يحب الواحد سماع الفاظها الشنيعة فى المنطق ومع هذا فقد تحسنت ألسنتهم بالنسبة لحالتهم الاولى

وعدد سكان هذه المدينة نحو (٥١٧,٥٠٠) نفسا وهى فى التجارة أعظم مينا من موانى فرانسا وواقعة على الشاطىء الاروبى على البحر الابيض المتوسط وترد عليها جميع واردات الشرق من الحيوانات والحبوب

والاصواف وأتربة المعادن والزيوت ونحو ذلك من المتاجر العظيمة وهى المركز الوحيد فى التجارة والبضائع الشرقية وفيها شركات بحرية ذوات المراكب العديدة تعد من الطبقة العليا

وهذا بيان خطوط تلك المراكب ومقدارا بعاد البلدان عنها مع معرفة كميتها بالكيلومتر والمسافة التى تقطعها المراكب وأجرة الركوب

اسم البلد البعيدة عن مرسيليا	المبلغ	اليوم	الساعه	كيلومتر	
الجزائر	١٨ فرنكا	٠٠	٢٦	٧٧٠	
وهران	١٢ »	٠٠	٣٠	٩٩٠	
اسكيكده	١٨ »	٠٠	٣٠	٧٣٠	
بنزرت وتونس	١٨ »	٠٠	٤٠	٨٩٠	
جزيرة الكرس	١٠ »	٠٠	١٨	٣٤٠	
« كليدونيا	٦٣٥ »	٣٨	٠٠	٢١٤٠٠	بحرية
اليابان	٧٠٠ »	٤٠	٠٠	١٨٩٠٠	
الصين	٧٠٠ »	٣٢	٠٠	١٦٨٤٠	
الهند	٦٢٠ »	٢٥	٠٠	١٣٥٥٠	
قنال بنا ما بامريكا	٢٢٥ »	٣٠	٠٠	١٠١٧٠	
جزيرة مدغسكر	٤٠٠ »	٢٢	٠٠	١٠٢٥٠	
كولون	٢٢٥ »	٣٠	٠٠	١٠١٧٠	
شانقاى جهات الهند	٧٠٠ »	٣٢	٠٠	١٦٨٤٠	
نوميا	٦٣٥ »	٣٨	٠٠	٢١٤٠٠	
بومباى	٤٥٥ »	١٨	٠٠	٨٤٤٣	

هذا وهناك خطوط آخر متعددة وفيما بيناه كفاية وزيادة

واعلم انى لما وصلت الى هذه المدينة غادرتها فى الحال ولم أمكث فيها لضيق الوقت ولما كانت لنا أمتعة آتية من مدينة اسكندرية الهاتركت رفيقى السيد الحاج بكير بن داود وديعة نظرها ليستلمها من مصلحة الديوان ثم سافر بها

ففى الساعة الواحدة بعد زوال يوم ٢٤ مارس ركبت فى الباخرة المعروفة بـ (تمقد) قاصدا عاصمة قطرنا (الجزائر) فلما سافرت وقربت من بوغاز الاسد هاج البحر وتلاطمت أمواجه واشتدت عواصف الرياح واضطربت المياه ومع ذلك فالسفينة لم تنقص عن سيرها ولا توقفت فى طريقها غير ان الركاب منهم من أغمى عليه وأما أنا فلم يحصل لى شىء أصلا واستمر الحال على هيجان البحر وتلاطم أمواجه الى صباح الغد ثم ابتدأ جو البحر فى التحسين شيئا فشيئا حتى الساعة الرابعة مساء يوم ٢٥ مارس فوصلت بحمد الله تعالى الى مدينة الجزائر

وكان قد ركب معنا فى الباخرة جناب ناظر الحربيه الفرنساوية (السيد اتيان) فلما أرست السفينة بميناء الجزائر وجدنا بطحاء المرساة مزدحمة بالناس فجاءت أعيان المدينه ورجال الحكومه وقواد الجيش والضباط من العساكر وتلامذة المدارس خلاف التجار وبقية سكان العاصمه الذين امتلأت بهم الشواطىء والشوارع وهم فى انتظار وصول باخرتنا التى تنقل ناظر الحربيه ووزيرها احتفالا بزيارته هذه الديار فنزلت من الباخرة فصادفت أواسط هذا الجم الغفير من الناس بعض معارفنا وأصحابنا فعانقتهم مسلما عليهم وفرحوا بوصولى فرحا زائدا وبقيت معهم بالجزائر أربعة أيام

ازالة لعناء السفر واجابة لطلبهم فقد تم ولله الحمد المقصود

وفى يوم ٣٠ من مارس سافرت مساء من الجزائر الى بلدتنا معسكر راكبا بالقطار السريع وصاحبنى فريق من الاحباب فوصلناها والمحطه مملوءة بالاقارب والفضلاء من الاصحاب والاساتذة من العلماء والاعيان من التجار والوجهاء من عموم بلدتنا منتظرين قدومنا وهم فى نهاية الاشتياق

فلما وقف القطار اشرأبت أعناقهم الى نوافذه محدقين الى أبوابه ومشخصين الى شبابيكه فنزلت مقبلا اليهم معانقا لهم واحدا بعد واحد وتبودلت بيننا التحيات وانشرحت صدور الجميع بقدومنا والله أشكر وأحمده على ما أولانا من نعمه التى لا تحصى واليه أرجو المغفرة من الذنوب وأن يوفقنا الى الاعمال الصالحات التى لا تستقصى فانه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير

هذا ما تيسر لى جمعه فى هذه الرحلة الزكيه والتحفه اللطيفه البهيه وان كنا قد شاهدنا فى سفرنا هذا أحوالا عديدة وأمورا غير متناهيه فى الغرابة مفيدة لكن محبة الاختصار على الفوائد حملتنى على أن أقتصر على الجواهر من الفرائد فجاءت بفضل الله تروق الناظر والمستمع باسطة لمن رامها العطاء بالبذل المتسع وكان الفراغ منها يوم الجمعه ٢٠ من جمادى الثانية سنة ١٣٣٢ هجرية الموافق ٥ مايو سنه ١٩١٤ ميلادية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما فى البدإ والنهاية

مقالة

مصحح هذه الرحلة ومقرظها

يقول راجى غفران ذنوبه والمساوى * المولود بن الصديق الجزائرى اليعلاوى * طالب علم بالازهر الشريف بر واق السادة المغاربه

حمدا لمن علم الانسان ما لم يعلم * وأغدق عليه بما لا يحصى من النعم * وصلاة وسلاما دائمين ما طلعت شمس و بدر قمر * على سيدنا محمد امام المرسلين وخيرة البشر * وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين * والتابعين وتابعهم باحسان الى يوم الدين ﴿ أما بعد ﴾ فقد اطلعت على كتاب التحفة البهية * على الرحلة الشرقية * لمؤلفها ونسيج بردها * سعادة الفضال العلامة الاباضى * حضرة الاستاذ يدر الحاج أحمد بن الحاج حمّ القاضى * فوجدتها قد أفرغت فى قالب من المحاسن والجمال * وألبست من ضروب البلاغة حلة من الكمال * واشتملت على فوائد تاريخية لاشهر البلدان * وعلى الجواهر من المسائل الاجتماعية فهى فى الظرافة كالحور الحسان * حيث رفع القناع عن مراكز المدن التى مر عليها * و بالغ فى البيان عن جغرافيتها وعمرانها * وعلومها وسكانها وأخلاقها وآثارها * سيما ما سال به قلمه فى الحرمين الشريفين والامكنة المطهرة * وكذا جدة والطائف ومقبرتى مكة والمدينة وعين زبيدة والاضرحة المقدسة * فلله دره لقد جمع من النفائس ما غفل عنها الكاتبون * وما أغزر علمه فيما بينه من الزوايا

التى سكت عنها المتكلمون * فصارت بما احتوته من الدرر الثمينة * والبدور المنيرة برهانا واضحا * وحجة ساطعة ودليلا راجحا * تشهد بما لمؤلفها من سعة الاطلاع * وغزارة المادة وكثرة الاتساع * أسئله تعالى أن يوفقنا واياه للعمل الصالح وجميع المسلمين * وأن يحشرنا « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين »

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين

كتب فى الازهر الشريف بتاريخ

٦ رجب الخير سنة

١٣٣٢ هجرية

